(١)

• شخصية ذي القرنين المذكورة في القرآن

جاء فى سورة الكهف ذكر شخص من التاريخ القديم ، لقب بـ (ذى القرنين) والآيات هى :

« ويسئلونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا • انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا • فأتبع سببا • حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما • قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا • قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا • وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا • ثم أتبع سببا • حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا • كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا • ثم أتبع سببا • حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا • قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا • قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما • آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا • فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا • قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا » — (٨٣ — ٩٨)

سبب النزول وبعض الروايات ،

الظاهر من أسلوب الايات أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فجاءت الايات جوابا للسؤال • فروى الترمذى والنسائى والامام أحمد فى مسنده : أن قريشا — بايعاز من علماء اليهود —

سألت النبى عن أمور ، منها : ذو القرنين ، فقالت : « من هذا الرجل وما هى أعماله ؟ » وروى القرطبى عن السدى :

« قالت اليهود أخبرنا عن نبى لم يذكره الله فى التوراة الا فى مكان واحد • قال ومن ؟ قالوا : ذو القرنين » • وقد أحصى ابن جرير وابن كثير والسيوطى الروايات بهذا الصدد فى تفاسيرهم

خصائص ذى القرنين فى القرآن :

ان ما ذكر فى الايات من خصائص « ذى القرنين » يتلخص فيما يأتى :

١ — الرجل الذى سألوا النبى عنه كانوايسمونه ب « ذى القرنين أى أن هذا الاسم أو اللقب لم يضعه القرآن من عنده ، بل الذين سألوا عنه ، هم الذين أطلقوه عليه • ولذلك قال : « ويسألونك عن ذى القرنين » •

٢ — أعطاه الله الملك ، وهيأ له أسباب الحكم والغلبة •

٣ — كانت مهماته الحربية الكبرى ثلاثة :

الاولى : غربية — زحف من بلاده متوجها الى الغرب حتى وصل مكانا كان له حد المغرب ، فوجد الشمس هناك كأنها تغرب فى عين •

والثانية : شرقية — فما زال يتقدم حتى بلغ أرضا لا عمران فيها تقطنها القبائل البدوية •

والمهمة الثالثة : وصلت به الى مكان به مضيق جبلى : يشن من ورائه قوم الغارات على الاهالى الذين اطلقوا عليهم اسم يأجوج ومأجوج • وكان هؤلاء همجا ، حرموا من المدنية والعقل •

٤ — أقام الملك سدا فى المضيق الجبلى لمنع غارات القوم •

٥ — لم يتكون هذا السد من الحجر والآجر فقط بل استهلك فيه الحديد ، وأفرغ عليه النحاس كذلك • فأصبح سدا منيعا تعجز دونه همم المغيرين •

٦ — كان الملك مؤمنا بالله وبالاخرة .

٧ — كان ملكا عادلا رحيما برعيته ، لا يبيح الفتك والقسوة بالمفتوحين فانه لما تغلب على قوم في الغرب ، ظنوا أنه يرهقهم كغيره من الملوك الفاتحين ، فلم يفعل ذلك بل قال لهم : لا خوف على الابرياء منه ، أنه من يعمل خيرا يجزيه كأن القوم في قبضة يده لا ناصر لهم ، الا أنه أشفق عليهم ، وكسب قلوبهم بعدله واحسانه .

٨ — لم يكن حريصا على المال ، فانه لما أراد المفتوحون أن يجمعوا له المال لاقامة السد ، أبى أخذه منهم قائلا ان ما أعطاني الله يغنيني عن أموالكم ، ولكن أعينوني بقوة أيديكم ، أشيد لكم سدا حديديا .

حيرة المفسرين :

فالشخصية التاريخية التي هذه أعمالها وصفاتها ، هي شخصية « ذي القرنين » ولكن من هو هذا الرجل ومتى وأين وجد ؟

أن أول مسألة شغلت بال المفسرين في هذا الصدد ، هي اسم الرجل أو لقبه ، اذ لم يعرف أن يكون لانسان قرن أو قرون ، ولم يعرف في التاريخ ملك لقب بهذا اللقب ، فتحيروا وتخبطوا في تفسيره خبط عشواء .

فقال بعضهم : أن « القرن » لم يستعمل في معناه الظاهر بل أريد به الزمن ، ولما كان هذا الملك قد امتد حكمه ، واتسع نطاق فتوحاته الى عهدين كبيرين ، لقب بذي القرنين ، ثم اختلفوا في تحديد مدة القرن ، فقيل ثلاثون سنة وقيل خمس وعشرون سنة ، وقيل عشر سنين ، — أقوال لا طائل تحتها .

وقد جمع ابن جرير الطبري في تفسيره آثار الصدر الاول في الباب ، غير أنها لا تلقى ضوء على شخصية خاصة ، بل تبحث فيما اذا كان ذو القرنين نبيا أو غير نبي ، بشرا أو ملكا ؟ ولكن الاثار أجمعت على أن هذه الشخصية قديمة غارقة في القدم ، قيل في بعض الروايات أنه عاصر ابراهيم عليه السلام ، وأنه كان من الانبياء فذكره البخاري مع الانبياء القدماء ، وقدم ذكره على ابراهيم ، فكأن البخاري رأى أن ذا القرنين وجد قبل ابراهيم بزمن قليل أو في عصره .

ولما بدأ عهد جديد للبحث والنقد ، اتجهت أذهان بعض المؤرخين الى اليمن ، فظنوا أنه كما ذكرت الروايات أسماء الملوك الحميريين كـ « ذي المنار » و « ذي الآذار » فلا يبعد أنه وجد ملك يمني سمي بـ « ذي القرنين » كذلك ، وقد صرح به أبو الريحان البيروني في « الآثار الباقية » (١) ووافقه عليه ابن خلدون ، ولكن هذه النظرية قامت على افتراض مخطىء لا يدعمه دليل تاريخي ، وتخالفه القرائن والشواهد كلها .

فنرى أولا أن الآثار أجمعت على أن الذين سألوا النبي عن ذي القرنين ، هم اليهود ، أو قريش بايعاز من اليهود ، فليس هنالك سبب يدعو اليهود الى معرفة ملك يمني ، والاهتمام به الى حد أن يسألو عنه ، أو يشيروا على قريش بالسؤال عنه .

وثانيا ان فرضنا أن قريشا هم الذين تقدموا بالسؤال من تلقاء أنفسهم ، فمعناه أن أحوال الملوك الحميريين كانت معروفة لديهم ، وهذا الافتراض كذلك غير صحيح اذ لو كان الامر هكذا لوجدنا له أثرا وذكرا في روايات العرب وأساطيرهم ، أو في أحاديث الصحابة والتابعين ، وهذا لا وجود له البتة ، ثم لا يغرب عن البال أن السائلين أرادوا تعجيز النبي ، فكانوا على يقين من أنه لم يصله خبر عن ذي القرنين من أبناء وطنه ، فيعجز عن الجواب ، ولو كان ذو القرنين رجلا من العرب وكان أهل الحجاز على علم منه ، لشاركهم النبي فيما يعلمونه ، ولما كان ثمة وجه للسؤال عن شيء معروف عنده .

والمسألة الحقيقية التي نحن بصددها هي : هل تنطبق الخصائص والاعمال التي ذكرها القرآن لذي القرنين على ملك حميري يذكر القرآن فتوحا له في الغرب ، وفتوحا له في الشرق ، واقامة سد حديدي يمنع هجمات يأجوج ومأجوج ؟

ولم توجد الى الآن شهادة تاريخية على وجود ملك حميري ، أمعن في الشرق والغرب مغيرا فاتحا ، وبنى سدا حديديا كما ذكره القرآن ، أما كون بعض ملوك اليمن لقبوا بـ « ذي » فلا أهمية له ، وكذلك التشبث

---

(١) الآثار الباقية صفحة ٤٠ .

بسد مأرب لا يجدى نفعا اذ لم يذكر أن هذا السد بنى لصد هجمات قوم واستخدمت فى بنائه ألواح من الحديد . ثم أن القرآن أشار الى سد مأرب فى مكان آخر ولا شبه بينه وبين سد ذى القرنين بوجه من الوجوه .

ثم جاءت طبقة أصحاب النظر فذهبوا الى أن الاسكندر المقدونى قد اشتهر بملكه وانتصاراته فى الشرق والغرب ، فيكون هو ذا القرنين . والظاهر أن الشيخ أبا على بن سينا هو أول من قال بهذا فى كتابه « الشفاء » فانه عند بيان مناقب أرسطا طاليس ذكر أنه كان معلما للاسكندر ، الذى ذكره القرآن باسم ذى القرنين ، وأثنى على ايمانه وسلوكه القويم . وتابع الامام فخر الدين الرازى ابن سينا فى رأيه . وسرد فى تفسيره الشهير — على عادته — كل ما قيل خلاف هذا الرأى . ولكنه اقتنع كذلك — على عادته — بالاجوبة الواهية ، فى حين أن الاسكندر المقدونى لا يمكن أن يكون ذا القرنين الذى ذكره القرآن بحال ، ولا يقال عن فتوحه انها فتوح فى الشرق والغرب ، وكذلك أنه لم يبن سدا فى حياته كلها . ثم اننا نستطيع ان نجزم بأنه ما كان مؤمنا بالله ولا شفيقا عادلا مع الشعوب المغلوبة . ان هذا المقدونى قد دون تاريخ حياته ولا يوجد شبه بين أحواله وأحوال ذى القرنين . وفوق هذا ليس ثمة سبب يسوغ تلقيبه بذى القرنين ، حتى أن الامام الرازى نفسه . مع تفننه فى ايجاد النكات ، قد عجز عن اثباته .

(٢)

• تاريخ اليهود القومى ..
وتصور شخصية ذى القرنين

والحاصل أن المفسرين لم يصلوا الى نتيجة مقنعة فى بحثهم عن ذى القرنين ، القدماء منهم لم يحاولوا التحقيق ، والمتأخرون حاولوه ولكن كان نصيبهم الفشل .

ولا عجب ، فالطريق الذى سلكه المفسرون كان طريقا خاطئا . لقد صرحت الآثار بأن السؤال كان من قبل اليهود فكان لائقا بالباحثين أن

يرجعوا الى أسفار اليهود ، ويبحثوا هل يوجد فيها شىء يلقى الضو على شخصية ذى القرنين . أنهم لو فعلوا ذلك لفازوا بالحقيقة .

سفر دانيال ورؤياه :

يوجد بين دفتى « العهد القديم » سفر نسبوه الى دانيال النبى وذكروا فيه بعض أعماله ، وما كشف له عنه فى رؤياه أيام أسر اليهو ببابل .

لقد كان عهد الأسر هذا عهد ابتلاء عظيم لليهود ، فقد دوخ بلادهم وديست قوميتهم ، وخرب هيكلهم المقدس ، فكانوا فى حز ويأس عظيمين ، لا يدرون كيف ومتى يتبدل أسرهم بالحرية ، وحزنهم بالسرور ، وموتهم القومى بحياة جديدة .

يقول لنا السفر المذكور آنفا أنه ظهر فى تلك الايام السود ، دانيال النبى ، فتقرب بنبوآته العجيبة ، وحكمته البالغة الى ملوك بابل الذين تقبلوه بقبول حسن ، فأنسوا به وأكرموه ، ورفعوه فوق السحر والعرافين ، وأن دانيال رأى رؤيا فى السنة الثالثة لجلوس الملك « ببلش فر » كشفت له ماهو واقع من الاحداث ، فجاء فى الباب الثامن من الكتاب :

« فى السنة الثالثة لجلوس (ببلش فر) الملك ، كنت بمدين سوس هيرا من أعمال عيلام ، على شاطىء نهر أولائى فرأيت الرؤ للمرة الثانية ، رأيت كبشا واقفا على شاطىء النهر ، له قرنان عاليان . وكان الواحد منهما منحرفا الى ظهره ، ورأيت الكبش ينطح بقرنيه غرب وشرقا وجنوبا ، لا قبل لحيوان بالوقوف أمامه . فهو يفعل ما يشا وصار هو كبيرا جدا . وبينما أنا أفكر فى هذه الظاهرة رأيت تيس أقبل من جهة الغرب ، وغشى وجه الارض كلها ، وكان بارزا بين عينى التيس قرن عجيب ، ثم ان التيس اقترب من الكبش ذى القرنين ونف منه مغضبا ، ثم عمد اليه فكسر قرنيه وصرعه وداسه ، فأصبح الكبش ذو القرنين عاجزا عن مقاومته ، محروما من ناصر ينصره عليه : — سفر دانيال ٨ : ١

ثم ذكر الكتاب على لسان دانيال ان الملك جبريل ظهر له وشرح رؤياه قائلا : ان الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد المملكتين ، مـادا وفـارس ، فيملكهما ملك قوى لا تقدر دولة على مواجهته . أما التيس ذو القرن الواحد الذى رآه بعد الكبش ، فالمراد منه ملك اليونان . والقرن البارز بين عينى التيس ، يدل على أول ملك من اليونان : (٨ : ١٥) .

فهذه الرؤيـا أو النبـوة مثلت فيهـا المملكتان ، مادا (يـديا) وفارس ، بقرنين . ولما كانت المملكتان سـتتحدان وتصبحان مملـكة واحدة مثلت شخصية ملكهما بكبش ذى قرنين ثم الذى يقضى على هذا الكبش ذى القرنين ويسيطر على الارض كلها هو قرن تيس اليونان ، أى الاسكندر المقدونى ، فقد حمل الاسكندر على دارابوش ، امبراطور مادا وفارس ، وانهارت به سيادة أسرة هنمامنشى أو المملكة الـكيانية الى آخر الدهر .

ومما ينبغى ذكره هنا أن كلمة (القرن) عامة فى اللغتين ، العـربية والعبرية . فقد وصف الكبش فى سفر دانيال العبرى بـ (لوقرنائيم) معناه بالعربية (له قرنان) أى أنه ذو القرنين

كانت لليهود فى رؤيا دانيال بشارة بأن نهاية أسرهم ببابل ، وبدء نشأتهم الجديدة ، منوط بقيام هذه المملكة ذات القرنين . أى أن ملك مادا وفارس يغير على ملك بابل ، ويتغلب عليه ، ويحرر اليهـود من أسرهم . وان هذا هو الملك الذى اختاره الله لاعانة اليهود ورعايتهم ، فيأمر بتعمير بيت المقدس من جديد ، ويجتمع الشعب الاسرائيلى الممزق مرة أخرى تحت رعايته .

وقد ظهر بعد هذه النبوءة بسنوات الملك « غورش » الـذى سـماه اليونان بـ (سائرس) واليهود بـ (خورس) ، فوحد مملكتى مادا وفارس ، وأنشأ منهما سلطنة عظيمة ، ثم هاجم بابل واستولى عليها دون عناء . رأى دانيال فى رؤياه أن الكبش ذا القرنين ينطح بقرنيه فى الغرب والشرق والجنوب ، أى يحوز انتصارات باهرة فى الجهات الثلاثة . هكذا كان أمر غورش فقد كان انتصاره الاول فى الغرب ، والثانى فى الشرق ، والثالث فى الجنوب ، أى فـى بابل . وكذلك صدقت النبوءة بخلاص اليهود وازدهارهم ، فقـد أطلقهم غورش بعد

فتحه بابل من الاسر ، وأذن لهم بالعودة الى فلسطين ، وبناء الهيكل من جديد . وحذا حذو غورش خلفاؤه من ملوك مادا وفارس ، فما زالوا يحمون اليهود ويرفقون بهم .

نبوءات بشعياه ويرمياه :

وفى العهد القديم نبوءات فيما نحن بصدده فى سفرين غير سفر دانيال وهما سفر النبى بشعياه وسفر النبى يرمياه . نجد فى الاول منهما اسم غورش بعينه وان كان النطق به فى العبرية (خورش) ويعتقد اليهود أن كتاب يشعياه ألف قبل غورش بمائة وستين سنة ، وكتاب يرميا بستين سنة . ونجد فى كتاب عزرا تفصـيلا كاملا للأمر . فقد ذكر أن نبوءات دانيال هذه وصلت الى مسامع الملك غورش بعد فتحه بابل ، فتأثر بها أى تأثر ، وكانت النتيجة أن قام لحماية اليهـود ، فأطلق سراحهم وأمر بتجديد بناية الهيكل .

وكتاب يشعياه يخبر أولا بخراب يروشليم على أيدى البابليين . ثم يبشر بتجديد عمرانها . ويذكر فى هذا الشأن (خورس) أى الملك غورش فيقول :

« يقول الرب المنقذ ... تعمر يروشـلم من جـديد ، وتقوم مدن يهودا مرة أخرى . أنا أبنى بيوتها المخربة كرة أخرى » (٤٤ : ٣٤) .

« وانى أقول فى حق خورس (غورس) بأنه راع لى وهو يتم مرضاتى كلها ..... يقول الرب فى شأن مسيحه خورس . أنا أخذت بيده اليمنى لأجعل الامر فى حوزته وأنزع القوة من سـواعد الملوك ، وأفتح له الابواب تلو الابواب . أجل ، انى أمشى بين يديك ، وأقـوم ما أعوج من سبلك ، وأكسر الابواب النحاسـية ، وأمنحـك الخزائن المدفونة والكنوز التى فى البيوت المغيبة . أفعل كل ذلك لتعلم أننى أنا الرب ، اله اسرائيل الذى ناداك باسمك صراحة لاجل اسرائيل ، شعبى المختار » (٤٥ : ١) .

وشبه غورش بعقاب الشرق فى مكان آخر من الكتاب فقال :

« ها ! أنظروا . انى أدعو عقابا من الشرق أدعو ذلك الرجل الذى سيأتى من أرض بعيدة ويتم سائر مرضاتى » (٤٦ : ١١) .

وهكذا نقرأ فى كتاب يرمياه :

« نادوا فى الامم ولا تخافوا ، قولوا أخذت بابل . خزى البعل (صنم بابل الشهير) بهت مردوك (صنم بابلى آخر) ، لحق العار بجميع أصنامها ، جعلت أوثانها شذر مذر ، لان شعبا من الجنوب مقبل زاحفا نحو بابل . يخرب أرضها ، حتى لا ترى بها بشرا » — يرمياه (٥٠ : ١) .

وهذا السفر كذلك يتنبأ بأسر اليهود ودمارهم ثم يبشر بتجديد عمارة يروشليم فيقول :

« يقول الرب لما تكمل سبعون سنة على أسر بابل ، آتى اليكم . اذ ذاك تدعوننى فأجيبكم ، تنشدوننى فتجدوننى . أفك القيد عنكم، وأعود بكل الى أوطانكم (٣٩ : ١) .

فيتجلى من نصوص أسفار اليهود هذه أن تصور « ذى القرنين » للملك غورش كان قد بدأ ، لانه مثل فى رؤيا دانيال النبى بكبش ذى قرنين ، وان شخصية الملك غورش كانت قد احتلت مكانا هاما فى عقيدة اليهود .

المنهج الحديث لنقد العهد العتيق وزمن تأليف أسفار يشعياه ويرمياه ودانيال :

ان أسلوب نقد العهد العتيق الذى بدأ فى القرن التاسع عشر باسم « النقد الاعلى » والذى فاز فيه بالقسط الاوفر العلماء الالمان ، قد دونت نتائجه ، وكذلك انضمت اليها بحوث علماء القرن العشرين ، فنجدهم قد انتهى بحثهم فى نبوءات الاسفار الثلاثة وفى زمن تدوينها الى ما يأتى : —

ان الكتاب الذى نسب الى يشعياه النبى ، تنطق موضوعاته ولغته ،

وكل ما احتوى عليه بأنه تأليف ثلاثة من المؤلفين ، وجدوا فى أزمان ثلاثة مختلفة .

فهى من بابه الاول الى الباب التاسع والثلاثين تأليف مؤلف .

ومن بابه الاربعين الى الآية الثالثة عشرة من الباب الخامس والخمسين تأليف مؤلف ثان .

والذى بعده من الكتاب ألفه مؤلف ثالث .

ولتسهيل المراجعة اصطلحوا فى المباحث النقدية على أن يقولوا : يشعياه الاول ، ويشعياه الثانى ويشعياه الثالث .

فهم يرجحون أن يشعياه الاول كان فى العهد الذى يرويه اليهود ، أى قبل الملك غورش بمائة وستين سنة .

أما يشعياه الثانى الذى تنبأ بظهور غورش ، فكان عائشا أيام أسر بابل ، كما هو ظاهر من أقواله التى تشعر بظروف غير ظروف صاحبه الاول .

وأما كلام يشعياه الثالث فعهده بعد الثانى . وهو يقدم لنا ظروفا وحالات تختلف عن سميه الذى تقدمه . فالنبوءات بغارة بختنصر وأسر اليهود ببابل وظهور غورش ، نجدها فى كلام يشعياه الثانى ، وهو فى الواقع كان عائشا فى ذلك العهد ولا يمكن نسبة كلامه الى يشعياه الاول . ان الرجل صبغ حوادث زمنه والتى قبل زمنه بصيغة القدم ونسب كلامه الى يشعياه الاول ، ليوهم الناس بأنه كلام قديم مضت عليه مائة وستون سنة .

قال الباحثون ان أكبر دليل على اختلاف شخصيات المؤلفين ، هو الاختلاف الفكرى وتباين المزاج التصورى الذى يوجد فى الكتاب . فاليهود من أول يومهم تخيلوا الله كاله قبائلى . وافترضوا معبده معبدا قبائليا . فكان « يهوا » اله اسرائيل الشعبى والقبائلى لا يمت بصلة الى شعوب أخرى . ولكنا نجد فى كتاب يشعياه لأول مرة تصورا الهيا جديدا — تصور اله عام للبشر كله ، ونجد الهيكل الاسرائيلى بيروشلم يتحول من معبد قبائلى الى معبد عام لسائر الامم الانسانية . هذا

التصور الجديد هو تصور يشعياه الثالث خاصة ، لان الظروف التى كانت لازمة لخلق هذا التصور ، لم توجد فى زمن يشعياه الاول •

وهكذا ما نجده فى سفر يرمياه من النبوءة بانتهاء أسر بابل وتجديد عمارة الهيكل لا يراه الباحثون سابقا للحوادث بستين سنة ، بل يقولون انه كتب وألحق بالكتاب بعد أن تحرر اليهود من أسر بابل ، وباشروا تعمير الهيكل من جديد •

أما الكتاب المنسوب الى دانيال فقد ذكرت فيه رؤيا أخرى ، رآها ملك بابل وعبرها دانيال ، ففى تعبيره نجد نبأ صريحا بظهور الاسكندر المقدونى ، وسقوط الامبراطورية الرومانية •

ويرى الباحثون الحديثون أن الكتاب مزور ، ألف بعد تحرر اليهود من بابل بقرون عندما بلغت الامبراطورية الرومانية أوج مجدها • ليس هذا فحسب ، بل ارتاب الباحثون فى وجود دانيال النبى نفسه • فرأى بعضهم أنه لم يوجد قط ، وانما اختلقوه لنسج هذه القصة • واعترف البعض الاخر بوجوده أيام أسر بابل ، دون أن يسلم بالاقوال التى نسبت اليه ، قائلا انها اخترعت فيما بعد لتقوية آمال اليهود بمستقبلهم بنبوءات وخوارق ماضية • والذى رجحه أكثر الباحثين أن زمن تأليف هذا الكتاب لا يتعدى القرن الاول قبل الميلاد ، فالاستاذ ميكس لوئر وضع كتاب دانيال فى قائمته التى كتبها للعهد القديم فى سنة ١٦٤ ق٠م [1] •

تخيل اليهود القومى وانتظارهم المنقذ :

ان ما أسلفناه من كتاب يشعياه النبى ، ظهرت فيه شخصية الملك خورس (غورش) كمنقذ موعود به أرسله الله لتحرير اليهود من أسر بابل ، وتجديد عمارة يروشليم ، فقال الله : « ان خورس راع لى ، وهو يتم مرضاتى كلها » • قال : « أنا أخذت بيده اليمنى لاجعل الامم

(١) ان هذا الكتاب للاستاذ ميكس لوئر من المطبوعات الحديثة ، فهو نافع للاطلاع على أحدث المعلومات فى الباب .

فى حوزته » • ثم يخاطب الله خورس نفسه قائلا : « أفعل كل ذلك لتعلم أننى أنا الرب • اله اسرائيل الذى ناداك باسمك صراحة لاجل اسرائيل ، شعبه المختار » •

فنرى بجلاء ، والحالة هذه تلك العقلية اليهودية التى مازالت تلازمهم عند كل كارثة نزلت بهم فى ظهور منقذ ينقذهم منها • والتى اتخذت نهائيا شكل العقيدة القومية بمجىء مسيح موعود به •

فكتاب يشعياه يصور خورس (غورش) كذلك بصورة مسيح • فينص فى شأنه بصراحة تامة قائلا : « ان الله يقول فى حق خورس مسيحه » •

بدأت حياة اليهود القومية بموسى الذى ظهر فى عصر كان اليهود يعيشون عيشة الذل والاسر فى مصر ، لا أمل لهم فى حياة قومية عزيزة رغدة ، ولكن موسى بعث فيهم روحا جديدة ، وصور لهم المستقبل بصورة رائعة أخاذة بالقلوب ، وجعلهم يؤمنون بأن رب اسرائيل بعثه لانقاذ بنى اسرائيل وانهاضهم ، وأن مشيئة الرب قضت بأن يفضل شعبه المختار على سائر الشعوب • وقد نشأ من هذا الايمان فى عقلية اليهود القومية تخيلان أساسيان : فاعتقدوا بأنهم شعب الله المختار وبأن الله أرسل اليهم منقذا عندما كانوا فى الذل والاسر • فتولدت من التخيل الاول فيهم نظرية الترفع القومى ، ومن الثانى نظرية ظهور منقذ عندما تنزل بهم النوازل ، فاعتقدوا بأنهم كلما يعمهم البلاء والدمار ، تتحرك رحمة الله فيرسل منقذا موعودا به ، يخرج بهم الى السلامة والرفاهية •

وقد ظهر ساءول (طالوت) والنبى داود فى ظروف كهذه ، خلقت فى الشعب آمالا جديدة ، ولذلك نجد داود ايضا لقب بـ « المسيح » ، ولعل هذا كان أول استعمال للقب • فكان لزاما ، والتقاليد القومية هذه ، أن ينبثق نور جديد للامل فى ذلك الظلام القاتم الذى وجد فيه اليهود أنفسهم ببابل ، ويتهيأ الذهن اليهودى فى ضوئه لانتظار منقذ لهم • فآمال النجاة والتحرر هذه هى التى تجلت فى كلام يشعياه الثانى فى حلل النبوءات •

يشعياه الثانى ودعوة غورش لفتح بابل :

يشعياه الثاني ودعوة غورش لفتح بابل:

أجمعت روايات العهد العتيق وروايات المؤرخين اليونانيين على أن أهل بابل كانوا قد ضجوا من عسف ملكهم ، بيل شازار ، فتآمروا على دعوة امبراطور فارس ، غورش للاستيلاء على بابل . وقد علموا المعاملة الحسنة التى عامل بها هذا الملك أهل ليديا بعد الغلبة ، فرجوا مثلها لأنفسهم .

يقول مؤرخو اليونان أن واليا من ولاة بابل ، غوب رياس ، كان قد هرب الى بلاط غورش وصحبه فى زحفه على بابل . وقال هيرودوتس : أن فتح بابل انما كان بتدبير هذا الوالى . فلما دقق الباحثون النظر فى نبوءات يشعياه الثانى بعد درسهم هذه الحوادث التاريخية ، وصلوا الى نتيجة منطقية حاسمة للوقائع .

ان كلام يشعياه الثانى لا يخلوا من أن يكون قبيل فتح بابل أو بعده . فان فرضنا الاول فلا مناص من الاعتراف بأن يشعياه الثانى كان من أصحاب المؤامرة المدبرة لدعوة غورش الى الفتح ، أو على أقل تقدير ، كان مطلعا على ظروف الزمن السياسية اطلاعا تاما . فصاغ تلك الظروف والامال — على ديدنة مؤلفى أسفار اليهود — فى صيغة النبوءات وألحقها بكلام يشعياه الأول وان فرضنا أن ما قاله يشعياه الثانى كان بعد الفتح لسهل الامر ، فقلنا ان المصالح القومية حملت الرجل على أن يصور الحوادث التى وقعت فعلا بنبوءات وأنباء بالمستقبل ناسبا كلامه الى يشعياه الاول .

النبوءات اليهودية والامبراطور غورش :

نجد فى سفر آخر من التوراة نسب الى النبى عزير (عزرا) ما وقع بعد فتح بابل ويخبرنا هذا السفر أن رؤساء اليهود عرضوا النبوءات التى تقدم ذكرها على الملك غورش ، قائلين له : ان الرب سماه فى كلامه وجعله المنقذ لشعبه المختار وأن الملك قد تأثر بما سمع ، فكان أن أصدر أمره بتجديد بناية الهيكل .

ومما لا ريب فيه أن غورش بعد فتح بابل وخلفاءه من بعده قد خصوا

اليهود بعطفهم ورعايتهم ، وأن بعض اليهود نالوا الحظوة فى بلاطهم .

هذه واقعة تاريخية لا يمكن تكذيبها وقديكون بعض ما جاء فى كتاب عزيز خلوا من الصحة ، الا أن الحوادث الاساسية يجب التسليم بها . فمن المعلوم أن أسر اليهود ببابل قد انتهى باستيلاء غورش عليها ، وأن عددا كبيرا منهم رحل الى فلسطين ليتوطن بها وأن الامبراطور غورش هو الذى أذن لهم بسكنى فلسطين وتعمير المدن الخربة ، وذلك بمنشورات ملكية خاصة .

ومن المعلوم كذلك أن الهيكل بيروشليم قد بنى من جديد وصدرت فى شأنه أوامر ملكية مرة بعد أخرى . وقد نقلت أحكام غورش ودارايوش وأردشير (ارتخششت) فى كتاب عزيز ، تؤيدها بعض كتابات مؤرخى اليونان .

ثم ان روايات اليهود القومية تقول ان عزرا ونحميا وحجى الانبياء قد وصلوا الى مقام كريم فى بلاط الامبراطور أردشير (أرتخششت) وأنهم هم الذين حملوا الملك على اصدار أوامره الخاصة باليهود . وليس هناك سبب ظاهر يدفع لانكار كل هذا .

فان صحت هذه الحوادث فعلينا أن نبحث عن العوامل التى حملت غورش على الرفق باليهود ، ونتساءل : ألم تكن هذه النبوءات من تلك العوامل ان أهم ما فى النبوءات اليهودية نبوءة دانيال التى مثلت فيها المملكة المتحدة من مادا وفارس فى شكل كبش ذى قرنين . ليكن ما فى هذه النبوءة من الكلام الدال على الاسكندر المقدونى الحاقيا . ولكن الجزء الأول منها الذى يتعلق بظهور غورش كان من شأنه أن يشهره فى ذلك الزمن ومن المحتمل جدا أنه اشتهر فعلا فيكون غورش قد تلقاه بحسن القبول . وسنتكلم فيما يأتى على التمثال الحجرى لغورش الذى عثروا عليه فى حفريات ايران ، وهو يحل المسألة الى حد بعيد .

أما ارتياب الباحثين الحديثين فى وجود دانيال ، فالقرائن والاخبار لا تدعمه يجوز أن يكون دانيال أسطورة مختلقة ، ولكن الكلام الذى احتوى عليه لابد له من أصل حقيقى ، فان كنا لا نسلم بقصة دانيال

كلها ، فيجب علينا أن نسلم بأن شخصا وجد بهذا الاسم ، وأنه نال الحظوة فى بلاط بابل بعلمه وحكمته .

علاقات اليهود والزردشتيين :

لنقف هنا قليلا فنرى ناحية أخرى هامة من البحث . لا ينبغى أن ننسى أن غورش كان من متبعى مذهب مزديسنا أى الدين الزردشتى ، وهذا أمر له أهمية خاصة فى العلاقة التى كانت بين الفارسيين والاسرائيليين . فمن المعلوم أن الوثنية كانت عامة شاملة فى العالم كله ، لم يشذ عنها الا فئتان اثنتان : اليهود والزردشتيون فقد اجتنب الدينان الوثنية وأشكالها من كل الوجوه . وليس فى تاريخ أهلها مجال للاعتراف بالوثنية .

وما دام الامر هكذا فمن المعقول أن نفرض أن غورش بعد تغلبه على بابل بلغته عقائد اليهود والاحكام الاخلاقية التى جاء بها دينهم ، ووجد تصوراتهم الدينية ، فاندفع بطبيعة الحال الى احترامهم ، وتلقى نبوءاتهم برغبة خالصة .

وهنا أمر آخر جدير بالتدبر ، وهو أن مؤرخى العرب عندما أقبلوا على تدوين التاريخ قبل الاسلام ، وجدوا فى الروايات الاسرائيلية ما يربط زردشت وأتباعه بأنبياء بنى اسرائيل . ذكر الطبرى هذه الروايات ، واستشهد بها المؤرخون بعده .

ولا ريب أنها روايات باطلة واهية لا أصل لها ، الا أن وجودها يدل على الفكرة اليهودية التى كانت ترمى الى التقرب من الدين الزردشتى . وأن هذه الفكرة على مر الايام اتخذت أشكال الروايات الخرافية ، وما زالت تروج وتتطور حتى حاول اليهود أن يثبتوا أن الدين الزردشتى انما اقتبس من دينهم ، وأن زردشت وخلفاءه كانوا تلاميذ لأنبيائهم .

عقيدة اليهود الدينية والقومية فى شأن غورش :

ذكرنا فيما سبق آراء الناقدين الحديثين فى الاسفار اليهودية ولكن هذه الناحية من البحث لا تعنينا . جاءت النبوءات قبل وقوع الحوادث

أو اخترعت بعدها ؟ لا تأثير له فيما نحن بصدده . انما الامر الذى نريد لفت الانظار اليه هو عقيدة اليهود القومية فى المسألة .

اذ من المعلوم أن أسفار يشعياه ويرمياه ودانيال من كتب اليهود الالهامية بلا نزاع ، فهم يؤمنون بأن كل ما جاء فيها من النبوءات قد تنبأ به الانبياء قبل حدوث الحوادث بزمن طويل ، وصدقتها الايام حرفا بحرف .

وكذلك يعتقد اليهود عقيدة راسخة أن ظهور غورش كان من عند الله ، بعثه لانقاذ بنى اسرائيل مما كانوا من البلاء العظيم ، ولتجديد عمارة يروشليم ، فغورش لقب فى كلام يشعياه النبى براعى الله ومسيحه ، وقيل فيه انه ينفذ ارادة الله وأن الله ناداه باسمه ، وأرسله لحماية بنى اسرائيل وانهاضهم . وفى رؤيا دانيال مثل غورش فى صورة كبش ذى قرنين ، ورآه يشعياه فى شكل « عقاب الشرق » . فعقيدة اليهود القومية فى الباب واضحة جلية ، وهى تثبت أنهم مستندون الى أسفارهم المقدسة ، كانوا يتصورون غورش بأنه ذو القرنين ، ويرون ظهوره مصدقا لبشارات أنبيائهم الالهامية .

ما دام الامر كما ذكر فطبيعة الحال يكون المقصود فى سؤال اليهود عن ؟ ذى القرنين : هو شخص غورش لا غير ، أى ذلك الملك الذى رآه دانيال فى شكل كبش « لو قرانائيم » ترجمته بالعربية « ذو القرنين » اذلفظ « القرن » اشتركت فيه اللغتان العربية والعبرية على سواء . ومن المؤكد أن يهود العرب كانوا يسمون غورش بـ « ذى القرنين » . ورواية السدى التى ذكرناها سابقا تؤيد هذا التفسير ، اذ جاء فيها أن اليهود قالوا ان ذا القرنين ذكر فى التوراة مرة واحدة فقط . هذا هو الواقع بعينه . فالكبش ذو القرنين لم يرد ذكره فى التوراة الا مرة واحدة ، وذلك فى سفر دانيال وحده .

بهذا التفسير قد ارتفعت سائر الاشكالات دفعة واحدة . فلا حاجة الآن أن نصرف كلمة « القرن » عن معناها اللغوى العام ، ولا أن نتيه فى بيداء التأويلات والتكلفات الباردة . فشخصية « ذى القرنين » التاريخية قد برزت للأعين . أما ما ذكره القرآن من أحوال ذى القرنين ، فسنراها تطابق أوصاف غورش مطابقة تامة دون أن نجهد أنفسنا فى هذا التطبيق .

العثور على تمثال غورش الحجرى :

خطر فى بالى لاول مرة هذا التفسير لـ « ذى القرنين » المذكور فى القرآن وأنا أطالع سفر دانيال . ثم اطلعت على ما كتبه مؤرخو اليونان ، فرجح هذا الرأى عندى . ولكن شهادة أخرى خارج التوراة لم تكن قامت بعد ، ولم يوجد فى كلام مؤرخى اليونان ما يلقى الضوء على هذا اللقب . ثم بعد سنوات لما تمكنت من مشاهدة آثار ايران العتيقة ، ومن مطالعة مصنفات علماء الاثار فيها ، زال الحجاب حين ظهر كشف أثرى قضى على سائر الشكوك فتقرر لدى بلا ريب أن المقصود من « ذى القرنين » ليس الا غورش نفسه ، فلا حاجة بعد ذلك أن نبحث عن شخص غيره .

ان هذا الكشف الاثرى الهام ، هو تمثال حجرى لغورش بعينه ، وجدوه منصوبا فى مكان يبعد عن عاصمة ايران القديمة « اسطخر » ، نحو خمسين ميلا على شاطىء نهر « مرغاب » وقد سبق جيمس موريز (Morier) فأخبر بوجوده . ثم جاء بعد سنوات السير روبرت كير بورتر (Sir R. Borter) فقاس المكان وفحصه فحصا دقيقا ، ونشر رسما للتمثال بقلم الرصاص ، وذلك فى كتاب رحلته الى ايران وجورجيا .

وقد تكلم القس فوستر (Foster) سنة ١٨٥١ فى المجلد الثانى من كتابه (Onpireve language) على التمثال ، واستدل به على نصوص التوراة وكذلك نشر صورة للتمثال أوضح من الاولى .

ولم يكن اللثام عن الخط المسمارى قد أزيح كلية الى ذلك الحين ، الا أنه كان قد تقرر أن التمثال لسائرس أى لغورش لا غير . وقد دعمت البحوث المتأخرة هذا القرار تدعيما لا يدع المجال للريب فيه .

ثم لما ألف الكاتب الفرنسى الشهير ذى لافواى (Deu Lafoy) كتابه عن الآثار القديمة فى ايران نشر فيه صورة عكسية للتمثال ، فعرفه الناس معرفة تامة .

وقد اعترف علماء الاثار فى القرن التاسع عشر بحسن التمثال الفنى ،

ويرى ذى لافواى أنه نموذج ثمين جدا للنحت الفنى القديم قائلا ، أنه النموذج الفنى الاسيوى الوحيد الذى يضاهى أحسن التماثيل الاغريقية ، فلا عجب أن احتل التمثال أهم مكان فى الاثار العتيقة الفارسية ، وقد تحمل عدد من علماء الالمان مشاق السفر الى ايران لا لشىء الا ليشاهدوا التمثال الجميل .

انه تمثال على القامة الانسانية ، ظهر فيه غورش وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب ، وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش يده اليمنى ممتدة بها الى الامام ، ولباسه نفس اللباس المعهود الذى نراه فى صور ملوك بابل وايران فهذا التمثال يثبت بلا شك أن تصور « ذى القرنين » كان قد تولد لغورش ، ولذلك نجد الملك فى التمثال وعلى رأسه قرنان . جاء فى رؤيا دانيال أن الكبش الذى رآه ، كان على رأسه قرنان ، ولكن ليس كسائر الاكباش ، بل كان القرن الواحد منهما وراء الاخر . هكذا نرى القرنين فى التمثال أمام الجناحين ، فوجودهما يطابق فى سفر يشعياء من قوله « ادعو عقابا من الشرق ، ادعو ذلك الرجل الذى يأتى من أرض بعيدة ويتم سائر مرضاتى » ولهذه الاجنحة اشتهر التمثال بالطير . والنهر الذى يجرى تحته سمى بـ « مرغاب » أى نهر الطير

ونحن نضم الى هذا المقال نقل صورة التمثال التى نشرها القس فوستر فى كتابه وهى جلية واضحة تقدم للناظر التمثال بجزئياته .

أما متى صنع التمثال « صنع بأمر غورش فى حياته أم بأمر خليفة من خلفائه ؟ أمر يصعب البت فيه . ان عاصمة العيلاميين والفرس كانت مدينة « سوسان » التى تسمى الان بأهواز ، وهى واقعة فى ايران الجنوبية . وكانت عاصمة مادا أى ميديا ، مدينة « هغ متانا » التى حرفها العرب فقالوا « همدان » ، وهى موجودة الى الان بنفس هذا الاسم ، الا أن محلها انحرف قليلا عن محلها القديم .

ولما ملك أرتخششت (الذى سمته العرب بأردشير) بعد دارايوش ، اتخذ اسطخر عاصمة له ، وعمرها بقصور وبنايات . وظلت هذه حاضرة الملك الى آخر امبراطور من أسرة هنامنشى ، وهو دارايوش الثالث ، وتخربت بعد هجوم الاسكندر بالحريق . ولما فتح العرب البلاد ، كانت اسطخر قرية حقيرة ، فأسسوا على مقربة منها مدينة « شيراز » الحاضرة التى تبعد عنها بستين ميلا .

ويظهر لى أن تمثال غورش أقيم فى عهد الملك أردشير ، لانه موجود بضاحية من اسطخر التى لم يبق من خرائبها الا منصة حجرية قام فوقها التمثال • فلنا أن نفهم أن التمثال كذلك يرجع عهده الى أردشير كما يرجع عهد سائر مبانى أسطخر اليه • ان كان رأينا هذا صحيحا فهو يقوى ما قلناه من كون غورش هو ذو القرنين وذو الجناحين ، اذ يدل على أن لقب غورش هذا كان قد أصبح مشهورا ومسلما به فى ذلك العصر ، حتى أنهم توارثوه بعد غورش كذلك • ولما أرادوا نصب تمثال له فى زمن أردشير • حملهم ذلك التصور على تصويره بهذه الصورة •

تصور غورش بذى القرنين ورواية الاسفار اليهودية المقدسة :

وهنا تواجهنا مسألة أساسية • لقد أثبت التمثال أن تصور ذى القرنين لغورش كان قد شاع ، وأصبح مسلما به عند اسرة هنمامنشى الملكية • ولكن من أين نشأ هذا التصور ؟ ان قبلنا رواية الصحف المقدسة اليهودية ، قلنا ان مبدأ التصور الحقيقى رؤيا دانيال ونبوءة يشعياه النبى • فهل نقبل هذا الرأى ؟

أرى أن ما لدينا من المعلومات ، يحملنا على الاخذ به • وأقل ما ينبغى أن نفعله ، هو التسليم بأمرين : الاول : أن رؤيا دانيال قد اشتهر أمرها من بعد فتح بابل ، أى الزعم بأن رؤيا كهذه قد وجدت • أجل ، ان ما يتعلق منها بالاسكندر المقدونى ، لم يكن فيها اذ ذاك بل ألحق بها فيما بعد • والثانى : أن هذا الرواية ونبوءة يشعياه الثانى قد وصلتا الى مسامع غورش كما ذكره كتاب عزرا ، وأن غورش ورجال بلاطه لم يستحسنوهما فحسب ، بل تمسكوا بهما ، واتخذوا تصور القرنين والعقاب شعارا رسميا للملك فصار بعد ذلك بـ « ذى القرنين » وبـ « ذى الجناحين » وصفا رسميا خاصا به ، ولما نحتوا له التمثال ، أبرزوا فيه هاتين الصفتين له ، وبعبارة أخرى ، ان اكتشاف التمثال قد صدق ما قال كتاب عزرا من أن نبوءات الانبياء ، عرضت على غورش فقبلها كنصوص روحية على اصطفائه وفضله •

قد يقال ألا يجوز أن يكون الامر على عكس ما ذكرت ، فلا يكون تصور « ذى القرنين » و « ذى الجناحين » تصورا يهوديا ؟ بل ربما كان غورش نفسه أو الفرس هم الذين تخيلوه ، وان هذا الفارسى لما اشتهر بعد أن اتصف به غورش ، اقتبسه مؤلفو صحف اليهود وحاكوا

حوله نبوءاتهم • فزعموا بالكبش « غرنيم » فى رؤيا دانيال ، وبعقاب الشرق فى كلام يشعياه ؟

ان باب المفروضات مفتوح على مصراعيه ومن العسير القطع برأى فى مثل هذه البحوث • ولكن لابد لكل فرض من وجود سند خارجى يستند اليه • وسند كهذا لا يوجد هنا ، يسوغ لنا رفض شهادة الصحف اليهودية رفضا باتا لمجرد عرض شبهة كهذه • وعدا ذلك ، لا يظهر من التفكر والبحث أن هذا التصور فى مزاجه يوافق المزاج الفارسى الفكرى ، وأن شهادته الداخلية تنطق بأعلى صوتها أنه تصور يهودى بحت ، اذ اليهود ما زالوا من الأول يمثلون بعض الحقائق والحوادث للحياة الانسانية بكبش أو خروف ، فمن ضحية اسحاق ، الى كفارة المسيح ، ومن كتاب الخلق الى مكاشفات يوحنا نجد مرة أخرى تمثيلات بالكبش أو الخروف أو الجدى • وبالعكس لا يوجد فى الخيال الفارسى والزردشتى تمثيلا بالكبش ، فان أدب أوستا كله خلو من مثل هذه التصورات •

(٣)

« أسرة هخامنشى الفارسية وغورش »(١)

لننظر الان فى أحوال غورش التى حفظها لنا التاريخ ، ثم نرى الى أى مدى تطابق ما ذكره القرآن منها :

الادوار الثلاثة لتاريخ ايران :

قسم المؤرخون فى العصر الحاضر تاريخ ايران الى ثلاثة أدوار :
فالدور الاول منها هو ماكان قبل هجوم الاسكندر المقدونى •

---

(١) اسم غورش باللغة البهلوية « كورش » بالكاف الفارسية ويسماه اليهود بكورش أو خورش . أما العرب فقالوا « قورش » كما نجده فى « الآثار الباقية » للبيرونى . وقد عدلنا عن هذا فكتبنا غوروش لما تعوده الكتاب المعاصرون من العرب من ابدال الكاف الفارسية بالغين (المترجم) والنطق المناسب هو أن الكاف الفارسية تنطق كما ينطق أهل القاهرة الجيم أو كما ينطق أهل الريف القاف .

والدور الثانى هو الدور البارثوى الذى سمته العرب بملوك الطوائف ٠

والدور الثالث هو العصر الساسانى ٠

وقد وصلت بلاد ايران فى الدور الاول من تاريخها الى ذروة المجد والفخار ، وقد بدأ بظهور غورش نفسه ، غير أنه ، يالللاسف ! دور قد أسدل الزمان ستائره عليه ، فليس لدينا وسيلة لمعرفته مباشرة ، وجل ما علمنا منه ، لم يصلنا من طريق الفرس أنفسهم ، بل من قبل شعب معاصر لهم نعنى اليونان ٠ فلولا الكتابات اليونانية لنسى التاريخ أفخر وأعظم قصة لمجد ايران العتيقة ، نسيا منسيا ٠

أجل ، ترك المترجمون العرب قصة ايرانية كبيرة باسم التاريخ ، أفرغها بعدهم هوميروس فارس « الفردوسى » ، فى النظم والشعر فجعلها خالدة ، ولكن كل ما ذكر فى هذه القصة من الاخبار قبل هجوم الاسكندر ، ليس بتاريخ ، بل أسطورة بحتة ، ينظر اليها التاريخ بالعين التى ينظر بها الى أساطير الهند القومية ، مهابهارتا ، وراماتنا ، أو الى الاساطير اليونانية القديمة الياذة ٠ فكما أننا لا نجزم بشىء فى شأن أشخاص مهابهارتا ، وراماتنا ، والياذة ، كذلك لا نستطيع البت فى شأن أشخاص شاهنامه ، فلا نعلم هل لهم أصل تاريخى أو هم من نتاج الافكار ؟ لقد احتل أبطال الفرس القدماء ، جمشيد والضحاك ، ورستم ، واسفنديار ، وسام ، ونريمان ، مكانا بارزا فى مخيلتنا ، ولكنا لا نعرف هل وجدوا حقا ، أم خلقتهم أساطير فارس القومية العتيقة ؟

وان من مآسى التاريخ البشرى العجيبة أن قطرا عظيما ــ كفارس ــ قد فقد أخبار أفخر دور من حياته فى طيات أساطيره القومية ، حتى أصبحنا لا نجد لها أثرا فى صفحات التاريخ ! ومن الصعب القول متى تولدت مبادىء هذه الاسطورة ، وفى أى عصر اتخذت صورة أسطورة مفصلة ، الا أن أمرا واحدا قد ظهر بكل جلاء وذلك أن « أوستا » سفر الزردشتين الدينى هو الذى هيأ المادة الاصلية لها ، ثم تطورت المادة ، ومازالت تتوسع حتى أصبحت أسطورة كاملة ، فنجد فى أجزاء « أوستا » التى وصلت الينا ، أسماء الاشخاص الذين زعمت الاسطورة بأنهم الملوك البيشداديون ٠ ولعل المادة الاولية ظلت تتطور

على الألسنة مدة طويلة ، ثم لما اتخذت شكل الأسطورة فى العصر الساسانى ، اختفى فى حماسها القومى العنصر التاريخى ٠ ولما كانت الكتب البهلوية قد انعدمت فى الخراب الذى صحب حملة الاسكندر على فارس ، حلت الاسطورة محل التاريخ الحقيقى ٠

ولما أراد المؤرخون العرب تدوين تاريخ فارس القديمة ، لم يجدوا منه شيئا ، الا هذه الاسطورة التى دونت فى العصر الساسانى ٠ فالكتب البهلوية التى ذكرها ابو حمزة الاصفهانى ، وابن النديم ، والمسعودى وغيرهم ، كخدائى نامه ، وآئين نامه ، ورستم أسفنديار نامه ، أو الكتب التى اشتهرت بسير ملوك الفرس ، لم تكن الا حكاية لهذه الاسطورة القديمة ، فترجمت ونقلت كلها الى العربية ٠ وقد أخذ هذه المادة أبو على البلخى اولا ، ثم الفردوسى فنظمها باسم « شاهنامه » ٠ وقد عثر فيما بعد على الاساطير البهلوية ، فعرض عليها باحثو القرن التاسع كتاب شاهنامه ، فعلموا أن العرب ترجموا الاساطير البهلوية بكل أمانة ٠ وكساها الفردوسى كذلك حلل النظم الفارسى الزاهية بكل أمانة ٠

والذى يستحق الذكر أن مؤرخى العرب لم تخف عليهم حقيقة هذه الاساطير ٠ فانهم نقلوها الى العربية كما وجدوها ٠ ولكنهم لم يسكتوا الى وجهتها التاريخية ، فقصر أبو حمزة الاصفهانى (وتاريخه أقدم التواريخ العربية فى الباب) بحثه على العصر الساسانى ، وأغفل العصور التى سبقته قائلا بأنه لا سبيل الى معرفة أحوالها ، لان الكتب البهلوية قد ضاعت فى الدمار الذى صحب الهجوم الاسكندرى [1] ٠

ونقل اليعقوبى هذه الاساطير الا أنه كذلك صرح بأنها ليست من التاريخ فى شىء ٠ ورفضها البيرونى قائلا « لا تقبله العقول » [2] ومر بها ابن مسكوية فى « تجارب الامم » مرا ، معلنا انها من بنات الوهم ، ولا يدخل فى التاريخ الا العصر الساسانى [3] ٠

ولم يجهل مؤرخو العرب ، أقوال مؤرخى اليونان ، بل كانوا يعلمون

---

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض طبع المانيا ص ٢٢ ٠
(٢) الآثار الباقية طبع أوربا ص ١٠٠ ٠
(٣) تجارب الأمم (تذكار) (غب) ص ٤ ٠

أن ما كتبه اليونان واليهود يختلف عن الاسطورة الفارسية القومية ، ولذلك قسموا تاريخ الفرس الى قسمين أساسيين : الرواية الرومية أى اليونانية ، والرواية الفارسية . فالمسعودى بعد ذكره الاختلاف بين الروايتين ، يقول فى كتابه « التنبيه والاشراف » انى صرفت النظر عن الرواية اليونانية ، لانها تخالف الرواية الفارسية ، ولانه ينبغى أن يؤخذ تاريخ الفرس من لسانهم ، لان صاحب البيت أدرى بما فيه [١] . ولكن وا أسفا ! خابَ أمل المسعودى ، لان الفرس كانوا قد فقدوا تاريخهم كلية ! .

أما أبو الريحان البيرونى فلم يقتنع ذهنه الوثاب الى البحث والتحقيق بالرواية الفارسية ، فجمع بين الروايتين فى كتابه « الآثار الباقية » ووضع جداول لأسماء ملوك الروايتين ، فنجد فى جدول الرواية اليونانية جميع الأسماء الحقيقية التى ذكرها مؤرخو اليونان يصدرها اسم غوروش . أما جدول الرواية الفارسية ، فلا يعدو عما ذكره الفردوسى فى شاهنامه من الأسماء[٢] .

وقد بذل علماء العصر الحاضر جهدهم فى الجمع والتطبيق بين الروايتين فلم يفلحوا . ومباحث المستشرق الالمانى اسبيجل فى الباب تستحق المطالعة والدرس ، الا أنه كذلك عجز عن التطبيق بين الروايتين .

وأهم مسألة تشغل بال الباحث ، هى شخصية « غوروش » فنتساءل : هل لها ذكر فى شاه نامه ؟ وقد ظن بعض الباحثين أن كيكاؤس نامه ، وغوروش الرواية اليونانية شخص واحد ، غير أن الاختلاف بين حياة الشخصين كبير ، فلا يدع المجال لمثل هذا الافتراض .

وذهب الآخرون الى أن كيخسرو المذكور فى شاه نامه ، هو فى الحقيقة غوروش . لان أسطورة ولادة كيخسرو تشبه أسطورة ولادة غوروش الى حد كبير . أجل ، يستحق هذا التشابه الاهتمام والبحث ،

---

(١) طبع أوربا ص ١٠٥ .
(٢) طبع أوربا ص ١٠٢ .

ولكنه وحده لا يسوغ الجزم بوحدة الاثنين التى تتطلب توافق احوال حياتهما ايضا ، وهو لا يوجد الى حد كبير .

مأخذ أحوال غوروش :

فنحن بالحالة هذه مضطرون الى الاستعانة بما كتبه مؤرخو اليونان وحدهم من أحوال غوروش . أما المأخذ الفارسى ، فلم يبق منه الا الاثار القديمة أهمها لوحات دارايوش التى كتبت بالخط المسمارى ، والتى حل رموزها علماء القرن التاسع عشر . وأهم من كل ذلك تمثال غوروش نفسه الذى عجزت أيدى الزمان عن العبث به . وهو يعلن من ألفى وخمسمائة سنة بلسانه الصامت :

تلك آثارنا تدل علينا   فاسألوا بعدنا عن الآثار !

أما مؤرخو اليونان فثلاثة منهم فصلوا فيما كتبوه عن غوروش ، وهم هيرودوتس وتى سباز ، وزينوفن . وقد اعتبر هيرودوتس حقا أبا للمؤرخين ، فقد ولد الرجل سنة ٤٨٤ ق.م. أما تى سياز فاشتغل بالطب وكان طبيبا امبراطوريا فى البلاط الفارسى . وأما زينوفن فكان فيلسوفا يونانيا من تلاميذ سقراط ، وظل متصلا ببلاط ايران مدة طويلة .

وقد صدقت اللوحات بعض ما كتبه هؤلاء المؤرخون كل التصديق . فمثلا شجرة نسب غوروش التى ذكرها هيرودتس وزينوفن ، توجد بعينها فى لوحة داريوش ، وكذلك ختم غوروش الذى عثر عليه فى حفريات بابل . يلقى الضوء على بعض التواريخ والسنين .

فارس وميديا سنة ٥٦٠ ق . م . :

كانت بلاد ايران منقسمة قبل الميلاد بخمسمائة وستين سنة الى قسمين :

فكان القسم الجنوبى يسمى بفارس ، والقسم الشمالى بمادا . وقد نطق بها اليونان « ميديا » والعرب « ماهات » .

ولما كانت الحكومتان الاشورية والبابلية تملكان سلطانا عظيما فقد بقيت فارس بقسميها تحت ضغطهما • وكان يحكمها امراء القبائل • ثم تخربت نينوا فى سنة ٦١٢ ق•م• وقضى على السلطان الاشورى ، فتحرر أمراء ايران الشمالية وهى مادا من نفوذه ، وبدأت تتكون مملكة محلية بها ، ووجدت القبائل الفارسية كذلك الفرصة لرفع رأسها ، فتأسست فى بلادها مملكة اخرى باسم « انشان » غير أن المملكتين لم يكن لهما من الحول ما يذكر . فظلتا مجهولتين ، لا سيما لان بابل بعد خراب نينوا دخلت فى دور جديد من النشاط والقوة ، ودوخ ملكها بنوخذ نصر (بخت نصر) اسيا الغربية كلها فبقيت المملكتان منزويتين لا يقام لهما وزن •

أسرة هخامنشى وظهور غوروش :

ثم ظهرت فى سنة ٥٥٩ ق • م • شخصية فذة فى ظروف غريبة التفتت أنظار العالم كله اليها فجأة كان صاحب هذه الشخصية شاب من أسرة هخامنشى اسمه « غوروش » الذى سماه اليونان بسائرس ، والعرب بقورش وخيارشا • وقد قبله امراء فارس حاكما عليهم • وبعد برهة من الزمن تم له الاستيلاء على مملكة مادا بدون صعوبة • هكذا تشكلت من قسمى ايران مملكة متحدة لاول مرة فى التاريخ ونشأت فى آسيا الغربية امبراطورية جديدة •

ثم بدأت فتوح غوروش المتوالية ــ فتوح ليست لسفك الدماء جريا وراء الحرص على جمع المال وحب القهر ، بل فتوح الامن والحق لبسط العدل للمظلومين والأخذ بأيدى المقهورين ، فلم تمض على ارتقائه العرش اثنتا عشرة سنة ، حتى سقطت أمامه جميع المملكات الاسيوية من البحر الأسود الى صحراء بلخ •

وقد كسوا حياة غوروش الاول هذا حلل الأساطير ، كما هو شأن أكثر الشخصيات العظيمة فى العالم ، فزعموا له نشأة غريبة فى ظروف غريبة نادرة • وقد حكى لنا هيرودتس وزينوفن هذه الاسطورة مفصلة ، فقالا : كان جده من قبل امه وهو استياغس ، عزم على قتله قبل ولادته ، فأصدر أمره بذلك ، الا أن الحكمة الالهية فتحت للمولود قلب أمير من أمراء البلاد بطريقة عجيبة من براثن الموت •

وقد اقفلت فى وجهه أماكن التربية الملكية ففتحت له المشيئة الازلية أبواب المدرسة الفطرية وأخذه فضاء الجبال والصحارى يربيه فى حجره ، حتى أتت الساعة التى ظهرت فيها مواهبه العظيمة ، وفضائل سيرته الرشيدة . فاشتهر أمره وانتشر صيته ، وعرفته بلاده فكان له الان أن ينتقم لنفسه من اعدائه الذين كادوا له ، وحاولوا هلاكه ، ولكنه آثر العفو على النقمة فصفح عنهم أجمعين حتى أن جده القاسى الفظ استياغس ، لم ينله من قبله بسوء !

هجومه الاول وفتح ليديا :

وقد بادره بعد ارتقائه العرش ، كروسس ملك ليديا واتفقت كلمة مؤرخى اليونان على أن كروسس هو الذى بدأه بالعداء وان غوروش حمل السيف مضطرا اليه ، وان دفاعه انتهى الى النصر المبين وهكذا نجحت مهمته الاولى فى الغرب •

كانت ليديا واقعة فى القسم الشمالى من آسيا الصغرى ، وهو يسمى الآن بأناضول ، حيث مستقر الحكومة التركية الحاضرة • وكانت حكومة هذه البلاد اذ ذاك يونانية الصبغة • انتصر غوروش فى الحرب ، وكانت عاقبة البلاد المقهورة فى ذاك العصر الدمار والهلاك على أيدى الفاتحين • الا أن مؤرخى اليونان كلهم يشهدون بأنه لم يقع شيء من هذا ، بل عامل غوروش المفتوحين بكل سخاء وجميل ، حتى انهم لم يشعروا بأنه كانت هناك حرب بساحتهم ، الا ما رواه هيرودتس من أمر كروسس ، الملك المغلوب ، فقال : ان غوروش أمر بادىء ذى بدء بأن يبنوا مصطبة من الحطب ويشعلوها بالنار بعد أن يقعدوا كروسس فوقها • ولعله قصد بذلك ان يمتحن شجاعته وثباته • أو يبطل أوهام البلاد الوثنية ، ولذلك لما رآه جالسا غير هياب ولا وجل ، نسخ أمره وعفى عنه ، فعاش بكنفه فى بحبوحة العيش والعز التام الى آخر أيامه • وقد علمت شعوب العالم من هذه الحرب أن غوروش ليس فاتحا جديدا فحسب بل معلما أخلاقيا جديدا كذلك يؤسس ــ خلافا لما كانت عليه الملوك والحكومات من الاخلاق والسيرة ــ امبراطورية جديدة على أخلاق سياسية جديدة •

هجومه الثانى فى الشرق :

وكان هجومه الثانى فى الشرق ، لأن القبائل الهمجية من غيدروسيا وبكتريا ، قد تمردت فلم يكن له مناص من السير اليها لسلامة البلاد وحفظ نظامها . أما غيد روسيا فهى البلاد الواقعة بين ايران الجنوبية والسند ، وهى التى تسمى الان بمكران وبلوخستان . اما بكتريا فهى بلخ . وقد ذكر المؤرخون اليونان مهمته هذه الا انهم لم يبينوا تاريخها . والمظنون أنها كانت بين سنة ٥٤٠ وسنة ٥٤٥ ق.م.

ووصول غوروش الى بلخ كان بمثابة وصوله فى نهاية الشرق ، لانه يكون قد خرج من ايران الجنوبية ، فوصل الى ميكران ، ومنها الى كابول مارا ببلوخستان ومن كابول توجه الى بلخ . والغالب أنه فتح بلاد السند كذلك فى هجومه هذا . وقد سمى الفرس السند باسم الهند ، فنجد فى لوحة دارايوش اسم الهند بين أسماء البلاد الثمانية والعشرين المفتوحة التى ذكرها فيها .

فتح بابل :

وفى نحو هذا الزمن (سنة ٥٤٥ ق.م.) رجا منه أمراء بابل وأكابرها بأن يقدم الى مدينتهم وينجيهم من عسف الملك بيل شازار .

وقد قامت الامبراطورية البابانية على أنقاض نينوا المخربة ، وأخذت تتوسع بسرعة فى سائر الجهات . وكان « بنو خذ نصر » الذى سماه العرب « بخت نصر » امبراطورا قاهرا جبارا فى دورها الجديد ، فانتشرت سطوته وعمت هيبته الى القريب والبعيد ، وأغار على فلسطين والشام مرارا . وقضى بغارته الاخيرة على البقية الباقية من حكم اليهود . مما سجلته صفحات العهد العتيق وليست أسفار حزقيال ، وبريمياه ، ويشعياه الأنبياء الا رثاء يفتت الأكباد على الدمار الذى أصاب اليهود وقد كانت الاغارة البابلية سيلا مخيفا يحمل معه الهلاك فوق الهلاك ، فخربت مدن اليهود ، ودمرت ، هيكلهم المقدس ،وعفت على آثارهم الدينية وغيرها ، وليس هذا فحسب بل ضاعت من جرائها أكبر ثروته الدينية وهى التوراة ، الى الابد . وقد أكلت سيوف الفاتحين

جمعا عظيما من اليهود وتشرد جمع عظيم منهم فى نواحى العالم

جمعا عظيما من اليهود وتشرد جمع عظيم منهم فى نواحى العا
أما الباقون فوقعوا فى الاسر وساقهم الجيش البابلى المنتصر كالبه
الى بابل فلم يبق فى يروشلم الا الانقاض وأصبح بقية السيف
اليهود يعيشون فى بابل عيشة الاسر والذل . وقد دام هذا الحـ
سبعون سنة .

ثم ضعفت شوكة بابل بعد موت جبارها بخت نصر . اذ لم يخلفه
تدبير محنك ، وكان امراء البلاد هم سدنة المعابد ، فاقاموا "نابونى
مقام الملك المتوفى ، فوضع مقاليد الحكم فى يد بيل شازار الذى قيل
أن الظلم والفسق والشر كان قد تجسم فيه ، فلقى الاهالى منه الام
وتنغصت حياتهم بسببه . وكان صيت غوروش قد انتشر فى أك
العالم ولهجت الألسن بمحامده فما كان من أهالى بابل الا أن أرس
أكابرهم الدعوة اليه ليقدم الى بابل وينجيهم من العسف والعذاب .

وقد أجمع المؤرخون على أن بابل كانت اذ ذاك أمنع مدينة على
الارض فقد بلغ سورها من المتانة والمنعة والطول والعرض مبلغا ج
من عجائب الدهر وخوارقه ، وفى مأمن من سلاح عصره . وعلى
ذلك لبى غوروش دعوة البابليين ، فقام من مكانه ، وما زال منو
فاتحا حتى وصل أمام أسوار المدينة . قال هيرودوتس أن واليا
لبابل يدعى غرب رياس كان يصحب جيوش غوروش ويهد
الطريق ، فما كان منه الا أن حفر جداول من الدجلة قبل المدين
فتحول مجرى النهر وييبس ما كان يدخل منه الى المدينة ، فان
الطريق للغزاة من داخل النهر فدخل منهم جمع عظيم اليها فى اح
الليالى واستولى عليها .

نهاية أسر اليهود وأمر اعادة بناء الهيكل وعقيدة اليهود القومية فى هذا الشأن :

تقول لنا أسفار اليهود المقدسة ان ظهور غوروش وفتحه بابل
معجزة من عند الله وذلك لينتهى أسر اليهود الذى دام سبعين س
وليعاد بناء يروشلم ، فيزعمون أن هذا كله وقع كما أخبر به يشـ
النبى قبل وقوعه بمائة وستين سنة ويرمياه النبى قبل ستين سنة .

تكون تاريخ اليهود من خمير معتقداتهم الدينية ، فكتاب العهد العتيق ليس كتاب شريعتهم فقط ، بل هو النبع لتاريخهم أيضا • وقد خلق اليهود تصورا خاصا لتاريخ العالم وعضدوه بالوحى والنبوة ولذلك أصبحت كل رواية من العهد العتيق تصورا أساسيا لعقائدهم الدينية ، وهم يؤمنون بها كل الايمان ، فتقول هذه الاسفار : ان جميع تلك النبوءات عرضت على غوروش بعد فتح بابل فتقبلها بقبول حسن ، وتأثر بها ايما تأثر ، فما كان منه الا أن أصدر أمره بأن تعاد الى اليهود جميع الاوانى المقدسة من الذهب والفضة التى نهبها « بخت نصر » وجلبها من هيكل يروشلم وسمح لهم بالرجوع الى فلسطين ليعمروا مدنهم المخربة ويبنوا هيكلهم المتهدم فتقول صحيفة عزرا :

« أعلن الملك غوروش بعد فتحه بابل فى سائر مملكته قائلا ، ان رب السماء قد وهبنى جميع بلاد العالم ، وأمرنى أن أبنى لعبادته هيكلا فى يروشلم الواقعة بأرض يهوديا ، فعلى كل من هو من شعب الرب ههنا أن يرحل الى يروشلم ويبنى بها بيت الرب ، وعلى جميع الناس فى مملكتى أن يساعدوا اليهود فى عملهم وأن يحضر لهم كل ما يحتاجون اليه من الذهب والفضة وغيرهما » •

فعاد بعد اعلان غوروش خمسون ألف أسرة يهودية من بابل الى فلسطين وباشروا تعميرها هى والهيكل ولكن العوائق كانت تحول بين العمل فتقول صحيفة عزرا ، ان نائب الملك داريوش بالشام وفلسطين تدخل فى العمل وأوقفه فرفع اليهود شكواهم الى البلاط الملكى فنالت القبول ، وأصدر داريوش أمرا جديدا وثق به أمر غوروش ، وقد ظهر النبى عزرا فى زمن أردشير ، فجاء بقافلة يهودية ثانية من بابل الى فلسطين ، وكتب التوراة من جديد • وكان عمل بناء الهيكل وقف مرة اخرى ، فأصدر أردشير بسعى النبى حجى امرا جديدا فى هذا الشأن وهكذا تم بناء الهيكل •

وتقول الرواية اليهودية القومية عن دانيال ، وعزرا ونحمياه ، وحجى بأنهم كانوا مقربين الى الملك غوروش ، ودارايوش وأردشير ، يعاملون باحترام خاص فى بلاطهم • وقالوا عن أردشير ان فتاة يهودية « أستر » أصبحت ملكة له ، وأن بعض امراء البلاط لما دبر الفتنة ضد اليهود ، حالت هى دونها وخلصتهم من المؤامرة • فيوجد

بين صحف العهد العتيق التى تسمى بـ « أبو كريفا
صحيفة أستر كذلك ، والمقصود من صحف « أبو كريفا » تلك الصحـ
التى ضمت الى ترجمة العهد العتيق اليونانية السبعينية[١] والتى
توجد فى النسخة العبرية وفى النسخة الفلسطينية •

هجومه الثالث فى الشمال :

ويخبرنا مؤرخو اليونان عن هجوم ثالث قام به غوروش لاصلا بعض بلاد الحدود من مادا وتقويتها • ولابد أن يكون هذا الهجوم جهة الشمال لان مادا هى ايران الشمالية التى تتاخم الجبال الشمال الفاصلة بين بحر الخزر والبحر الاسود • وقد سميت هذه البلاد فى بعد بالقوقاز وسماها الفرس بـ «كوهقاف» وبلاد قوقاز الحاضرة وا فى وديان هذه الجبال • وقد وصل غورش بهجومه هذا الى نهر ، نز عليه جيشه ، فسمى النهر من ذلك الحين بـ « نهر سائرس » أى نـ غورش ولا يزال يدعى بهذا الاسم الى الآن • ومما لا ريب فيه أنه هجومه هذا صادف قوما من سكان الجبال ، شكوا اليه أمر يأجو ومأجوج ، فأمر ببناء سد حديدى هناك كما سنراه مفصلا فيما بعد ومما يؤسف له أن مؤرخى اليونان لم يعتنوا بتدوين حوادث هـ الهجوم •

وفاة غوروش سنة ٥٢٩ ق • م :

لقد لهجت الالسنة فى الشرق والغرب بعظمة غوروش بعد فتحه باب لانه لم يبق على وجه البسيطة أحد يعارض هذه الامبراطو الجديدة • فكان غوروش وحده امبراطور العالم كله فى ذلك الحين وكان هذا الامر اعجوبة العصر القديم • لقد كان الرجل قبل أربع عشر سنة راعيا مجهولا ، يعيش فى الغابات الجبلية ، فاذا هو يملك الآ وحده جميع الممالك التى مثلت عظمة الامم وشوكتها لقرون ، فأصبـ وحده ملجأ يلجأ اليه سائر الشعوب من الساحل الغربى لآسيا الصغر الى صحراء بلخ ! •

(١) الترجمة السبعينية قام بها اثنان وسبعون عالما من احبار اليهود بـ ملك مصر البطليموس ، فلادلفس (من سنة ٢٨٤ الى سنة ٢٤٧ ق• م) ويشار الى هذه الترجمة بالاعداد اللاتينية •

عاش غوروش بعد استيلائه على بابل عشر سنين فى سنة ٥٢٩ ق٠م ٠
وأن آثار ايران القديمة التى نقبت فى هذا العصر تشتمل على مدفنه كذلك وهو بناء مربع جميل من المرمر ، وقد بظهور هذه المقبرة أن دفن الأموات كان شائعا بين الزردشتين القدماء وعلى الاقل كان الملوك وأعاظم الناس منهم يدفنون كما يظهر ذلك ايضا من العثور على قبر دارايوش ٠ وكانت العامة تسمى هذا القبر بنقش رستم ٠

سلف غوروش وخلفه :

يستحسن الآن أن نذكر أسماء سلف غوروش وخلفه الاقربين لان الاختلاف فى النطق بها فى اللغتين ، البهلوية واليونانية ، أوقع بعض المؤرخين فى الخطأ ٠

ان شجرة نسب غوروش التى ذكرها هيرودتس وزينوفن ، قد صدقت لوحة داريوش ، فكان والد جد غـوروش هخمنش الذى دعاه اليونان بـ « ايـكى مينس » وقـد أجمـع المؤرخـون ولوحـة دارايوش على أن ملوك مادا وفارس كانوا ينتسبون اليه ، وقد جعلوا اسمه اسما لاسرتهم اى سموا أسرتهم بـ « هخامنشى » ٠

وولد لهخامنش ابنه « شائش بير » الذى حرف اليونان اسمه فقالوا « تائزييز » وولد لهذا كمبوشيه ، الذى أصبح فى اليونانية « كم بى سز » Cambysesوفى العربية كمبوشيا ، وولد لكمبـوشيا صـاحبنا غوروش ٠

وقد سمى غوروش بـكره بكمبوشيا ، وأضيف اليـه اللقب الملكى « أهشورش » وظل يستعمل للملوك بعده ، الا أن اليونان حرفوه كذلك فقالوا « اهاسورس » والعرب « اخشورش » ٠

ارتقى كمبوشيا العرش بعد أبيه غوروش وهاجم مصر فى سنة ٥٢٥ ق٠م واستولى عليها ووصلت الأنباء وهو فى مصر بأن أهل مادا شقوا عصا الطاعة وان رجلا يدعى « غرموتا » زعم بأنه أخ لكمبوشيا وأن أسمه « برديه » ولذلك يستحق الملك ٠ وقد سمى اليونان ، برديه هذا بسمرديز والحاصل لما علم كمبوشيا بالثورة قفل من مصر قاصدا بلاده ولكنه توفى بالشام وقيل مات غيلة ٠

ولما لم يبق من ولد غوروش بعد هلاك كمبوشيا أحد توج أمراء البلا ابن عم له وهو دارايوش ٠ فتغلب هـذا على الثـوار وقتـل الدعى غرموتا ، ووصل بملكه الى الذروة العليا من العز والمجد ٠

أما دارايوش ، أرتخششت الذى سماه اليونان بـ « أرتازركى والعرب بـ « أردشير » ٠ هؤلاء الملوك الاربعـة ، هم الذين ... أسماءهم فى أسفار اليهود ، أى غورش ، وأخشـورش ، ودارايوش وأردشير ٠ وقد بدأ اليهود باعادة بناء هيكل يرشـلم فى عهد غـو وتمموه فى أيام أردشير ٠

الهجوم الثانى على بابل ونهاية ملكها

كان غوروش فى فتوحه سمحا كريما كما رأينا ٠ كان يفتح البـ بدون أن يقضى على حكوماتها المحلية ، أو أديانها ودساتيرها وعوائـ بل كان يكتفى بأخذ الخراج ووضع المراقبة العالية ٠ هذه كانت عادته وهذا ما فعله ببابل فترك فيها نائبه ، وعاد بنفسه قافلا الى بلاد فكانت بابل تابعة لامبراطورية غوروش ، وتتمتع باستقلالها الداخلى وكان لها ملكا ٠

يقول مؤرخو اليونان ان هذه الحالة دامت نحو عشرين سنة ، حتى توفى غوروش واشتغل دارايوش بثورة مادا ، فرأى ملك بابل فرصة للتحرر من التبعية الفارسية،فأعلن استقلاله التام٠وعلى ذلك نهض دارايوش اليه مهاجما ٠ وقد دون مؤرخو اليونان حوادث هذه الحروب فقالوا كما نال غوروش النصر التام باعانة أمير بابلى ، اسمه غوب ويا كذلك تم لدارايوش الفتح بحيلة رجل مغامر دخل المدينة ، حيث دبر المؤامرة ضد الملك فقتل بغتة وفتحت أبواب بابل للمغيرين ٠

ونجد فى صحيفة دانيال صورة أخرى لهذا الحادث نفسه مصبو بصبغة خاصة ٠ فقد قالت الصحيفة أن الليلة التى سبقت ليلة القتـ أقام فيها الملك حفلة سرور وحبور ، وأمر ساقيه أن يقدم اليه الخمـ أقداح الهيكل المقدسة المنهوبة من يروشلم ، فامتثل الساقى بأمره فـ رفع الملك القدح الى فيه اذا هو يرى يدا غيبية تمتد الى الجدار وتنـ عليه عبـارة آرامية ترجمتها « منى منى تقبل وفرسين » فدهش الـ

برؤيته هذه ، وامتلا رعبا فطلب السحرة والعرافين وأمرهم بشرح العبارة ولكنهم عجزوا عنه وأخيرا ذكرت له الملكة اسم دانيال ، فدعاه اليه ، فشرح له العبارة قائلا ، انه انذار من قبل الله اليك بأن أيامك قد انتهت « منى منى » أى عدت أيامك و « تقبل » أى وزنت فعلم وزنك و « فرسين » أى دالت دولتك وآلت الى فارس ! فلم يمض على هذا الكلام يوم الا وذبح الملك ، واستولت جيوش دارايوش على بابل •

وقد انتهت بانتصار دارايوش مملكة بابل وأصبحت ولاية خاضعة لامبراطورية فارس •

لا ندرى الرواية دانيال هذه أصل أم لا ؟ لا يسهل البت فى المسألة لأن الصحيفة ألفت بعد فتح بابل بزمن طويل • ولا نقصد بقولنا هذا أن الرواية صيغت أثناء التأليف ، اذ يجوز أن تكون مادة الرواية موجودة من قبل ، وكذلك يجوز أن يكون للمادة أصل • ان كان الامر كما قلنا فما هو ذلك الاصل ؟ ذهب بعض البحاث العصريين الى القول بأنه ينبغى لنا أن نبحث عن ذلك الاصل فى مؤامرة بابل المذكورة • فان كانت هنالك مؤامرة ضد ملك بابل ، فمن الذين كانوا أشد بغضا له ، حتى دبروا هذه المؤامرة ؟ لا يخفى أنهم كانوا يهود بابل ، فقد قيل فى الرواية أن الملك أراد أن يشرب الخمر فى أوانى الهيكل المقدسة ، متعمدا اهانة الهيكل • فمن الذى يكون قد تأذى من هذا العمل ، وسخط على الملك ؟ أولئك هم رؤساء يهود بابل • فلم لا نفرض أن هؤلاء الرؤساء اشتركوا فى المؤامرة وهم الذين أوجدوا اليد السرية التى كتبت الانذار على الجدار ؟ ولكن اليهود لا يعترفون بذلك بل يقولون كانت معجزة ظهرت لتأييدهم •

• حديث القرآن والتاريخ عن غورش

لنا أن نقول الآن ان مسألة لقب ذى القرنين » وقد حلت نهائيـ وليس ثمة ريب فى أن تصور ذى القرنين لغوروش كان قد وجد • غضضنا النظر عن الشهادات الصريحة التى يشهد بها العهد العتيق • تمثال غوروش نفسه لشهادة حسية ملموسة على صحة ما نقول • وبقى الآن أن نرى هل الحالة التى فصلها له القرآن توافقه أم لا ؟ وسنرى توافقه كل الموافقة •

وقد سبق لنا فى بدء المقال أن أتينا على خلاصة ما قاله القرآن فى شأن ذى القرنين ، ويحسن بنا أن نعيد النظر اليها مرة أخرى •

أنا مكنا له فى الارض :

١ ــ ان أول ما وصف به القرآن ذا القرنين هو قوله « انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا » (٨٤) • أى أننا منحناه السلطان والتثبت فى الملك وهيأنا له جميع الوسائل والمعدات التى كان يحتاج اليها لتدعيم حكمه واتمام فتوحه ومن أسلوب القرآن أنه كلما ينسب نجاح شخص وسلطانه الى الله مباشرة ــ كما نراه فى هذه الاية ــ يريد بذلك أمرا عظيما قد وقع على خلاف المعهود ولذلك صار هبة من الله ورحمة خاصة من لدنه • فمثلا نرى فى سورة يوسف انه يقول « وكذلك مكنا ليوسف فى الارض » (١٢ : ٥٦) ؛ أى جعلنا يوسف متمكنا فى أرض مصر وذلك لان يوسف عليه السلام وصل الى حكم مصر بطريقة عجيبة غير معهودة ، ولذلك نسب الى الله ، ليبين أنه كان من نعم الله الخصوصية عليه أن أخرجه من السجن وأجلسه على عرش البلاد • ولما كان أسلوب الكلام عن ذى القرنين نفس هذا الاسلوب كان لزاما أن يكون وصول ذى القرنين كذلك الى مقام الملك والسلطان فى ظروف غير عادية فيكون منحة خصوصية من عند الله •

واذا نظرنا من هذه الناحية الى كورش ، نجد كان مصورا صورا ذا

القرنين صورة مطابقة للاصل تماما ، فقد بدأ حياته فى ظروف أحاطت بها الحوادث المحيرة للعقول ، حتى سبكتها فى قالب أسطورة : انه لم يولد بعد الا أن والد أمه أصبح عدوا لدودا له . يريد الفتك به ولكن الرجل الذى انتدبه لقتله ، امتلأ قلبه عطفا وحنانا عليه ، فاختطفه من براثن الموت . ثم انه ينشأ فى الغابات والصحارى والجبال ، ويعيش عيشة الرعاة المهملين المجهولين فبينما هو كذلك اذ تتغير الاحوال بغتة ، وتقوده الى ساحات الجد والعمل ، مشمرا عن ساعديه فيخلو له عرش مادا بدون مزاحمة ! لا ريب أن سير حوادث الحياة العادية لا يكون هكذا . انه حقا أمر فذ ، نادر ، عجيب ! .

وآتيناه من كل شىء سببا :

ثم قال « وآتيناه من كل شىء سببا » أى وهبناه كل الوسائل للعمل والنجاح . انظر كيف تطابق هذه الكلمات من الآية الامر الواقع ؟ أن الشاب الذى كان بالامس راعيا مجهولا ، قد استوى اليوم على عرش الملك ، وملك جميع ما يحتاج اليه من وسائل العمل بدون حرب ونضال ! يقول مؤرخو اليونان أن جميع قبائل فارس قد اتفقت على طاعته من تلقاء نفسها ، وظهرت فى التاريخ أول مرة المملكة الفارسية المتحدة . ثم احتشدت له جيوش عظيمة لم تملكها مملكة من قبل .

المهمة الاولى الغربية :

٢ ـ ثم ذكر القرآن لذى القرنين ثلاث مهمات :

كانت الاولى منها الى « مغرب الشمس » والغرض الواضح من « مغرب الشمس » الجهة التى نرى الشمس تغرب نحوها ، أى جهة الغرب ، وليس معنى ذلك مكان غروب الشمس حقيقة ، اذ لا يوجد ولا يمكن أن يوجد مكان كهذا . وأن كل اللغات لتعبر عن الغرب والشرق بـ « مغرب الشمس » وبـ « مطلع الشمس : ونجد فى العهد العتيق كذلك تعبيرات كهذه ، فنقرأ مثلا فى صحيفة زكريا ؟ يقول رب الجموع انى أنجى شعبى من البلد الذى تطلع منه الشمس ، ومن البلد الذى تغرب فيه الشمس » (٨ : ٧) ، أى أنجى بنى اسرائيل من مصر

وبابل ، اذ مصر لفلسطين بلاد المغرب ، وبابل بلاد المشرق . هذا أمر واضح لا يحتاج الى البحث ، الا أن أمرا جليا كهذا أصبح معقدا لولع المفسرين بالعجائب ، فتوهموا أن ذا القرنين وصل الى المكان الذى تغرب فيه الشمس حقيقة !

والحاصل أن مهمته الاولى كانت الى الغرب ، ولا ريب أنها كانت مهمة ليديا ، لأنك ان مشيت من ايران الشمالية الى آسيا الصغرى ، تكون قد مشيت نحو الغرب تماما .

وقد رأيت آنفا ان غوروش ما كاد يضع تاج فارس ومادا على رأسه حتى فاجأه ملك آسيا الصغرى ، كروسس ، بالهجوم وقد تكونت مملكة آسيا الصغرى التى عرفت باسم ليديا ، فى القرن السابق للحوادث التى نحن بصددها ، وكانت عاصمتها مدينة سارديز . ولقد سبقت حروب بين مادا وليديا قبل ارتقاء غوروش العرش ، وأخيرا صالح والد كروسس جد غوروش ، استياغس ، ولأجل تصميم الاتحاد تصاهرت الأسرتان المالكتان ، ولكن كروسس داس كل هذه العلاقات والقرابات حين كبر عليه أن تنشأ امبراطورية عظيمة باتحاد فارس ومادا تحت زعامة غوروش الناجحة ، فحرض اولا حكومات بابل ، ومصر واسبارتا عليه ثم استولى باغارة فجائية على بلدة بتريا الواقعة على الحدود .

فاضطر غوروش الى رد سيف المهاجم الى نحره ، فخرج من عاصمة مادا ، هغ متانا (همدان) وانقض كالصاعقة على خصمه ، ولم يطل النضال ، بل سقطت مملكة ليديا كلها ساجدة أمام قدميه بعد موقعتين بتريا وساردیز !

وقد أتى هرودتس على تفاصيل هذه الحروب ، وهى ممتعة ، فقال كان انتصار غوروش سريعا جدا لم يتوقعه أحد ، فما مضت على معركة بتريا أربعة عشر يوما الا وخضعت عاصمة ليديا المنيعة ، ووقف ملكها كروسس ، أسيرا بين يدى الفاتح ! فأصبحت آسيا الصغرى كلها من بحر الشام الى البحر الاسود خاضعة لغوروش ، ولكنه ما زال يتقدم ويتوغل ، حتى بلغ آخر المغرب ، أى الى ساحل البحر . وهنا ـ طبعا ـ وقفت أقدامه ، كما وقفت بعد اثنى عشر قرنا أقدام موسى بن نصير على الساحل الشمالى من افريقية .

واجتاز غوروش من هغ متانا الى ليديا ألفا وأربعمائة ميل وكان لا يقدر على المشى فوق أمواج البحر ، فوقف ، فاذا هو يـرى الشمس تغرب فى عين الخليج الساحلى • وكان له هذا المقام بلا ريب مغرب الشمس أى نهاية المغرب •

وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما :

لنضع خريطة الساحل الغربى لآسيا الصغرى أمامنا • نرى فيها معظم الساحل قد تتقطع فى خلج صغيرة ، لاسيما على مقربة من أزمير ، حيث اتخذ الخليج صورة عين • كانت ساردیز على مقـربة من الســاحل الغربى ، ولا تبعد كثيرا عن أزمير الحاضرة • فلنا أن نقول أن غوروش لما تقدم بعد استيلائه على ساردیز ، وصل من ساحل بحر ايجه الى مكان قريب من أزمير ، ورأى الساحل قد اتخذ صورة تشبه العين ، وكان الماء قد انكدر من وحل الساحل ، فرأى الشمس تغرب مساء فى هذه العين • هذا هو ما عبر عنه القرآن بقوله « وجدها تغرب فى عين حمئة » أى أنه تراءى له كأن الشمس تغرب فى بقعة كدرة من الماء •

ومن المعلوم أن الشمس لا تغرب فى مكان ما ولكنك ان وقفت على ساحل بحرى ؛ لرأيت الشمس كأنها تغرب رويدا رويدا فى البحر •

المهمة الشرقية :

٣ ـــ وكانت مهمته الثانية الى مشرق الشمس ، أى فى جهة الشرق • فهيرودتس وتى سبار كلاهمـــا يذكران هذه المهمة الشرقية التى قام بها غوروش بعد فتحه ليديا ، وقبل استيلائه على بابل ، فقالا « ان طغيان بعض القبائل الهمجية الصحراوية حمله على القيام بهذه المهمة » •

وهذا يطابق ما قاله القرآن « حتى اذا بلغ مطلع الشمس ، وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » أى أنه لما وصل الى نهاية الشرق ، رأى الشمس تطلع على قوم ليس لديهم ما يستترون به من قيظها ، يعنى أنهم كانوا من القبائل الرحالة التى لا تسكن المدن ولا تبنى لها البيوت •

قبائل الشرق الرحالة :

من كانت هذه القبائل الرحالة ؟ يظهر من بعض ما صرح به مؤرخو اليونان أنها كانت قبائل بكتريا ، أى بلخ • ولو نظرنا فى الخريطة لوجدنا « بلخ » بمثابة الشرق الاقصى لايران ، لأن الارض بعدها ترتفع وتسد الطريق • والظاهر أن قبائل غيدوسيا كانت أخذت تسعى فى فساد على حدوده الشرقية ، فقام من مكانه حتى وصل بلخ فاتحا • والمقصود من غيدروسيا ، البلاد التى تسمى الآن بمكران وبلوخستان •

المهمة الثالثة الشمالية وسد يأجوج ومأجوج :

٤ ـــ وقام بهجوم ثالث على بلاد جبلية كانت تغير عليها من ورائها يأجوج ومأجوج وهنالك بنى السد • كانت هذه مهمته الثالثة ، وصل بها ، تاركا على يمينه بحر الخزر ، الى جبال القوقاز حيث وجد مضيق بين جبلين منها •

ذكر القرآن هذا الخبر قائلا « حتى اذا بلغ بين الســدين ، وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قــولا » ، أى أنهم كـانوا جبليين متوحشين ، حرموا من المدنية والعقل والفهم •

والمقصود بسدين ، مضيق فى جبال القوقاز • وانك تجد على يمين القوقاز بحر الخزر الذى يسد طريق الحافة الشرقية منها ، وعلى اليسار البحر الاسود الذى يسد طريق الحافة الغربية ، وترى فى الوسط سلسلة جبالها الشاهقــة التى صــارت جدارا طبيعيا ، فلم يكن هنالك منفذ للمهاجرين من الشمال الا مضيق وسطى فى هــذا الجبــال ، يجتــازه المهاجمون ويشنون الغارات على البلاد الواقعة وراءه • فبنى غوروش فى هذا المضيق سدا حديديا ، وأقفل به الطريق على المغيرين ، ولم يأمن أهل سهول قوقاز وحدهم بهذا السد بل أصبح السد بابا مقفلا منيعا لسلامة سائر بلاد آسيا الغربية ، فأمنت جميع الشعوب القاطنة فى آسيا الغربية وفى مصر من جهة الشمال •

انظر الخريطة • تجد آسيا الغربية تحتها • وبحر الخزر فوقها ، والبحر الاسود على يمينها ، وقد سدت جبال القوقاز ما بين البحرين • فهذان البحران وسلسلة جبال القوقاز ، أوجدت سدا طبيعيا يمتد الى

مئات الاميال • ولم يكن هناك خلل فى هذا الجدار الهائل ، ينفذ منه شعوب الشمال الا ذلك المضيق ، فعمد غوروش اليه وقفله ببناء سد حديدى لا يتسلق عليه ولا ينقب فيه • فكان السد بمثابة باب قد أحكم اقفاله بين آسيا الغربية والبلاد الشمالية •

أما القوم الذين وجدهم ذو القرنين هنك ، وكانوا خلوا من العقل ، فيحتمل أن يكونوا القوم الذين ذكرهم اليونان باسم « كولش : وذكروا فى لوحة ذاريوش باسم « كوشيا » • هؤلاء الذين شكوا الى غوروش هجمات يأجوج ومأجوج ، ولما كانوا مجردين من الحضارة وصفهم القرآن بقوله « لا يكادون يفقهون قولا » أى لا يفهمون الكلام •

أوصاف ذى القرنين الاخلاقية فى القرآن :

٥ — والان تأتى أمامنا أوصاف ذى القرنين الاخلاقية التى ذكرها القرآن ، فأولها عدله وحبه لرعيته • لنرى الى أى حد ينطبق هذا الوصف على حياة غوروش ؟

يخبر القرآن أن الله قال له فى شأن الذين وجدهم فى الغرب : « اما أن تعذبهم واما أن تتخذ فيهم حسنا » • أى أصبح هؤلاء فى قبضة يدك فلك أن تعاقبهم أو تعاملهم بالحسنى •

لا شك فى أن هؤلاء كانوا الشعب اليونانى فى ليديا • هاجمه ملكهم كروسس ، بدون حق ناسيا العهود والقرابات ، ولم يكتف بهجومه ، بل حرض عليه جميع الدول القوية المعاصرة • والان بعد أن خاب سعيه ، وعاد كيده فى نحره ، كان لغوروش أن يعاقبه على سوء عمله • ولو فعل ذلك لما عوتب فيه ، لانه كان له الحق فى ذلك • هذا هو الامر الذى عبر عنه القرآن بقوله : « اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا » •

فماذا فعل ذو القرنين ؟ انه قال : بل أعاملهم بالحق ، لانى لست من الذين يميلون الى الظلم : « أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا : **وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا** « (٨٧ : ٨٨) **أى لا أعاتبهم على ما سبق** لهم من الشر ، بل أعفو عنهم • أجل • من يأت بمنكر بعد هذا
فسينال جزاء عمله ، ثم يرد الى الله ليعاقبه بما هو أشد وادهى ، وأما

... من يعمل الخير ويطع أمرى ، فأجزيه بالحسنى • هذا هو اجمال ما فصله مؤرخو اليونان من سيرة الرجل ، وقد قبله مؤرخو العصر الحاضر كحقيقة تاريخية لا مراء فيها •

وقد اتفقت كلمة مؤرخى اليونان على أن ما فعله غوروش بعد فتحه ليديا لم يكن العدل الصراح فحسب ، بل كان أكثر من ذلك • كان كله سماحة ومرحمة وكرما ونبلا • فلو عاقب أعداءه ، لكان ذلك عدلا لانهم كانوا جناة مجرمين ولكنه لم يقف عند حدود العدل ، بل صعد الى المقام الاعلى من الانسانية الفاضلة •

يقول هيرودوتس ، أمر غوروش جنوده بألا يرفعوا السلاح على أحد غير المحاربين من الاعداء ومن يخفض رمحه منهم فلا يقتلوه • أما كروسس ، الملك المنهزم ، فأمر فى شأنه ألا يؤذيه أحد ، حتى ولو هاجمه بسلاحه • وقد أطاع الجيش أمره طاعة تامة ، حتى لم يشعر عامة الاهالى بويلات الحرب وتغير الملك والسلطان ، ولم تتغير حالة الاهالى •

وهنا يجب أن ألا ننسى بأن انتصار غوروش كان هزيمة منكرة لآلهة اليونان ، لانها لم تقدر على صون عابدها الخاص ، كروسس من المحنة الكبرى •

قال المؤرخون ، استخار كروسس الآلهة ، قبل اقدامه على الهجوم ، وان هاتف « دلفى » قد بشره بالفتح المبين ، ولما انعكست الآية وانكسر كروسس ، استاء اليونانيون ، فأخذوا يؤولون ويحاولون أن يجعلوا من هذه الهزيمة الشنيعة فتحا دينيا لآلهتهم • فقد روى هيرودوتس ما قاله الناس فى ليديا بعد اندحار ملكهم فزعموا أن هاتف دلفى لم يخطىء وانما أخطأ كروسس فى فهم جوابه لتحمسه الحربى • لأن الهاتف كان قد قال له « ان هاجم كروسس الفرق ، فيدمر مملكة عظيمة » أى أنه يقضى بهجومه على مملكته العظيمة نفسها ، ولكنه أساء الفهم ، فظن أن الهاتف بشره بانهيار المملكة الفارسية •

وكذلك زعموا أن غوروش لما أمر باحراق كروسس فوق مصطبة الحطب ، تذكر كروسس ، وهو فوق المصطبة المشتعلة بالنار قول فيلسوف يونانى لم تأخذ يبتسم وقد اخبروا غورش بذلك فتأثر به أيما

تأثر وأمر باطفاء النار حالا ، ولكن النار كانت قدتأججت وعجز رجال الملك عن اطفائها ، فنادى عند ذلك كروسس الاله « أبولو : وعلى رغم أنه لم يكن على السماء غيوم ، فقد أخذ المطر ينهمر ، فانطفأت النار فى لحة من البصر ، وأنقذ الاله حياة كروسس بعد أن عجز عنــــه كل البشر ! .

هذه هى مزاعم القوم ، ولكنا حين نرجع الى ما صرح به هيرودوتس وزينوفن نعلم الحقيقة . فقد قام كروسس بهجومه بعد أن تقوى قلبه ببشارة آلهة اليونان وقد اشتهرت البشارة قبل بدء الحرب ، فأراد غوروش أن يبطل ما اعتقده القوم ، ويريهم أن الذين اتخذوهم آلهة ، لا يستطيعون لهم نصرا ، حتى أنهم لا يقدرون على انقاذ من أحبوه وبشروه بالفتح من الاحتراق وهو حى ، ولذلك أمر غوروش أولا أن يقعدوه على مصطبة الحطب ، ويشعلوا النار فيها ، ليرى الناس بأعينهم أن آلهتهم لا قدرة لها ، وأنه ليست هنالك معجزة تنقذ ملكهم من النار ، بل سيصير رمادا تذروه الرياح . فلمــا تجلت هذه الحقيقــة للعيان ، أطفئت النار بأمر الملك ونجا خصمه المكسور من الهلاك . وأن معجزة « أبولو » المزعومة فى أسطورة اليونان لتشير صراحة الى الحقيقــة التى أراد غوروش اثباتها بعمله ، ولذلك حاول القوم نقضها باختراع هذه المعجزة الواهية الكاذبة .

وجاء فى القرآن أن ذا القــرنين قال : « وســنقول له من أمرنا يسرا » . أى ان أحسن القوم ، فسيرون انه ليس فى معاملتى ما يشق عليهم أو يسوءهم . وقد شهد مؤرخو اليونان بأن معاملته كانت كما ذكره القرآن ، فقد كان هو للبلاد المغلوبة كله عطفا ومرحمة . وقد نجاهم من كل ما كانوا يئنون تحته من الخراج الثقيل ، والضرائب الباهظة التى كان الملوك فى ذلك العصر يفرضونها على الرعية . وقد فتح يسر أوامر غوروش ورحمة قوانينه دورا جــديدا للرخاء ورغد العيش للناس قاطبة .

خصائص غوروش العامة :

٦ ــ هذه كانت معاملته فى مهمته الغربية . أما كيف كانت عاداته
وفضائله ؟ وما شهد به مؤرخو اليونان في شأنها ، والى اى مدى

تطابق هى ما ذكره القرآن منها ؟

لا ينبغى لنا أن ننسى الامر الواقع ، وهو أن المؤرخين الثلاثة الذين كتبوا عن غوروش ، لم يكونوا من قومه ، ولا من أبناء وطنه ودينه بل كانوا من اليونان ليس هذا فحسب بل لم يكونوا من أصدقائه ومحبيه ، فقد هزم غوروش ليديا وهزيمة ليديــا كــانت فى الحقيقة هزيمة لقومية اليونان ، والحضارة اليونانية ، ولدين اليــونان . ثم خلفه دارابوش وأردشير ، فأغارا على بلاد اليــونان نفسها ، وهكذا تولد العداء بين الشعبين وتمكن .

ثم ان هؤلاء المؤرخين الثلاثة ألفوا كتبهم فى عصر أردشير أو بعده أى فى العصر الذى اشتعلت عواطف اليونان القومية فيه الى آخر حد وآخذ شعراء اليونان يكتبون أشد التمثيلات العدائية ضد الفرس ، وهى موجودة الى يومنا هذا . فما كان ينتظر فى مثل هذه الظروف العدائية من رجل يونانى أن يغنى بأناشيد المدح لعدو شعبه اللدود ، ويطلق العنان لقلمه فيجرى بالثناء عليه . ومع كل ذلك نرى كل واحد من المؤرخين الثلاثة يعترف بعظمة غوروش الخــارقة للعــادة وبفضــائله الاخلاقية الفذة .

وهذا دليل قاطع على أن محاسن غوروش كانت قد اشتهرت اشتهارا ما كان يسع أحدا معه أن ينكرها أو يمارى فيها ، حتى ولو كان من أكبر أعدائه فقد شهدت بها الأعداء كالأصدقاء على سواء . ولله در من قال

ومليحة شهدت بها ضراتها   والفضل ما شهدت به الاعــداء

ويقول هيرودوتس « كان (غوروش) ملكا كريما ، جــوادا ســمحا للغاية . لم يكن حريصا على جمع المال كغيره من الملوك ، بل كان حريصا على الكرم والعطاء . يبذل العدل للمظلومين ، ويحب كل ما فيه خير البشر » .

ويقول زينوفن « كان ملكا عاقلا ، رحيما . اجتمعت فيه مع نبل الملوك وفضائل الحكماء . همته تفوق عظمته ، وجوده يغلب جلالته خدمة الانسانية شعاره ، وبذل العــدل للمظلومين ديدنه . حل فيه ــ مكان الكبر والعجب ــ التواضع والسماحة » .

• بروز شخصية غوروش

٧ — وأظهر ما نجد فى صفحات هؤلاء المؤرخين ، هو رفعة شخصية غوروش الفذة فقد أجمعوا على أنه لم يكن من نبت عصره ، بل شخصا فذا ، كأنه سبق خلق عصره لم يعلمه معلم ، ولم يربه حكيم ، ولم ينشأ فى بلد متحضر ، وانما كان ربيب الفطرة ، وصنيع أيدى الحكمة الازلية ، مضت الايام الاولى من حياته فى حجر الصحارى وكنف الجبال • كان من رعاة الصحارى الشرقية من فارس غواعجبا ؟ لما برز هذا الراعى أمام أعين العالم ، كان أكبر مظهر للحكم ، وأعظم شخصية للحكمة والفضيلة !

لقد نشأ الاسكندر الاكبر على يد أرسطاطاليس ، ولا ريب أنه كان فاتحا عظيما ، ولكن هل فتح زاوية من زوايا الانسانية والاخلاق ؟ لم يوجد لغوروش أرسطا طاليس يعلمه ، بل انه عوضا من المدارس البشرية ، نشأ فى مدرسة الفطرة ومع ذلك لم يكتف بتسخير البلاد كالاسكندر ، بل سخر مملكة الانسانية والفضيلة كذلك •

ان عمر فتوح الاسكندر لم تجاوز عمر الاسكندر نفسه ، ولكن المعاقل التى شيدتها فتوح غوروش ، صارعت حوادث الدهر الغلابة قرنين كاملين دون أن يصيبها تلف • ان الاسكندر لم يلفظ أنفاسه الاخيرة ، حتى تقطعت أوصال مملكته المفتوحة ، ولكن غوروش عندما انتقل من الدنيا ، كانت مملكته مستعدة للتوسع والتمكن • لم يكن ينقص فتوحه الا مصر ، فأتم النقص ولده ، باستيلائه على مصر الخالدة ، وبرزت بعد بضع سنين تلك الامبراطورية العالمية التى لم ير العالم العتيق مثلها قط ، فبسطت سلطانها على ثمانية وعشرين قطرا من قارتى آسيا وأوربا ، وكذلك على مصر وكان على عرشها خلف غوروش ، يحكمها وحده بلا منازع !

كانت فتوح الاسكندر ، فتوحا مادية ، بينما فتوح غوروش شملت الجسد والروح معا • ترفع الاولى رأسها ، فلا تقدر على البقاء ، بينما تبقى الاخرى غير متزحزحة !

اعتراف المؤرخين العصريين :

وقد اعترف بهذه الحقيقة محققو التاريخ فى العصر الحاضر • فهذا المستر غرندى أستاذ جامعة اكسفورد ، والاختصاصى الثقة فى التاريخ القديم ، والذى ناله تأليفه « الحرف الفارسى الكبرى » قبولا عاما ، يقول فى مقال له :

« لقد كان نجاحه ، نجاحا عظيما • كان قبل اثنتى عشرة سنة أميرا مجهولا لامارة مجهولة وهى « انشان » فاذا بنا نراه قد خضعت له جميع تلك البلاد التى كانت مراكز المظلمة للشعوب الكبيرة السابقة • فهذه البلاد التى ادعت ملكية الارض فى أيامها لم يعد أحد منها يتجاسر الآن على ادعاء الزعامة لنفسه ، فمن بلاد سارغون ، الملك الاسطورى للمملكة الأكاديمية الى بلاد بخت نصر ، امبراطور بابل سجدت كلها لهذا الامبراطور الفاضل الجديد » •

« انه لم يكن فاتحا عظيما ، بل حاكما كبيرا كذلك • وان الشعوب لم تقبل الدور الجديد فقط ، بل رحبت به أيضا • ففى السنين العشر الاخيرة من حياته بعد فتح بابل ، لم تحدث ولا ثورة واحدة فى مملكته الواسعة • أجل كانت رعيته تهابه ، ولكن لا تخشى قسوته ، اذ حكومته لم تعرف عقاب القتل والسلب والنهب ، ولم يكن المذنبون يجلدون ، ولا تصدر الاوامر بالمذابح العامة ، ولا تخاف الشعوب الجلاء من الاوطان ، بل كان الامن والسلام يشمل الجميع ، وترفرف الطمأنينة والرفاهية على الكل • لقد محيت آثار مظالم الملوك الاشوريين والبابليين ، وأرجعت الشعوب المنفية الى أوطانها ، وأعيدت اليها آلهتها ومعابدها ، لم يبق اعتساف ضد العوائد والعبادات القديمة » •

« بذل العدل لسائر الشعوب ، ومنح الحرية التامة لجميع الاديان والمذاهب وقد حل محل الخوف العام السابق ، عدل عام ، ومسامحات كريمة ، ومساداة تامة »[1] •

أرأيت كيف يشرح ويفصل قصاص اليوم ما أجمله القرآن الكريم فى كلمات وجيزة من فضائل الرجل وخصائله الحميدة !

---

(١) راجع أيضا كتاب تاريخ العالم لميرتن ، ج ٢ ص ١٠٨٥ :

(٥)

• المعتقدات المذكورة فى القرآن و « غورش »

وآخر وأهم ما يلفت نظرنا اليه من أوصاف ذى القرنين ، هو اخلاصه العبادة لله وحده ، وايمانه بالحياة الآخرة • وقد مر بنا ما ذكره القرآن منه ، فلنر الآن هل كان غورش كما وصف به ذو القرنين ؟

أجل تدل القرائن والشواهد كلها على ذلك •

فأول ما يواجهنا من الامر ، هو عقيدة اليهود القومية فى المسألة •

صرحت صحف اليهود الدينية عن غورش بأنه كان موعودا من الله ومسيحه بعثه الله لينفذ مشيئته ويتم مرضاته •

ومن المعلوم أن اليهود ماكانوا ليعتقدوا ذلك فى شأن رجل وثنى لا يوحد الله ، فلابد من أن يكون غوروش ممن يوحد الله ويؤمن به •

ولا يخفى أن عصبية اليهود الجنسية كانت شديدة جدا ضد الاجانب غير الاسرائيليين ، فما كان أشد على عصبيتهم القومية من أن يعترفوا لاجنبى بكرامة وشرف ، وقد منعتهم هذه العصبية نفسها فى بدء الاسلام من الاعتراف بنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول بعضهم لبعض ، « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » (٣ : ٧٣) ولكنهم على رغمذلك خفضوا جناحهم لفضائل غوروش الذى كان اجنبيا عنهم من كل الوجوه ، ولم يكتفوا بالاعتراف بكرامته ، بل حسبوه موعودا به على لسان الانبياء وصفى الله ، فهذاالامر الواقع يحملنا على البت بأنه كان فى دين غوروش ما استحسنه اليهود ، وهو الذى حملهم على الاعتراف بفضله رغم عصبيتهم ضد الأجانب • ومن الطبيعى أن يحمد الانسان من أحسن اليه ويحترمه ، فما كان عجيبا من اليهود أن يتغنوا بعظمة الملك الذى نجاهم من الاسر والذل ، غير مبالين بدينه ، ولكن الذى ما كان

ينتظر منهم : ؟ ان يقولوا عن ذلك الملك بأنه مرسل من عند رب اسرائيل وأنه من أصفيائه وأوليائه •

« مزديسنا » أى الدين الزردشتى :

لنرى الان ما عندنا من المعلومات عن معتقدات غوروش الدينية ؟

اذا نظرنا الى الشواهد التاريخية ، نكاد نقطع بأن غوروش كان يدين بدين مزديسنا أى انه كان يتبع الدين الذى جاء به زردشت الشهير [1] •

متى وأين ظهر زردشت ؟

لا نعلم حق العلم • وقد ذكر مؤرخو اليونان فى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد ما كان شائعا فى عصرهم عن زمنه ، فقالوا ، مضت عليه ألوف السنين • ولا يخفى أن اطلاق القول بالتقدم كهذا لا يكون الا اذا بعد العهد ومضت عليه ألف أو أكثر من السنين ، ولكن علماء العصر الحاضر يرون أن القول مبالغ فيه ، فلا يتصور لزدوشت مثل هذا القدم • وقال الأستاذ جلدنر ان زمن زردشت لا يتجاوز ستة قرون قبل الميلاد ، وقد قبل العلماء رأيه هذا ، فان كان الأمر كما ذكر ، فيكون زردشت وغورش قد عاشا فى عصر واحد •

---

(١) الاسم الصحيح لاسم زردشت فى اللغة البهلوية « زاراتهشترا » حرفه اليونان فقالوا : « زارا سترو » والحروف الأخيرة للاسماء البهلوية كالسنسكرتية مهموزة دائماتنطق منصوبة تقريبا ، ولاظهار هذه الحالة النصبية ، يكتبون الألف فى اللاتينية الحاضرة ، وعلى ذلك ينطق الألف الأخير من « زاراتيسترا » بصوت يشبه النصب . وتتبدل تاء الكلمات البهلوية القديمة فى بهلوية العصرالساسانى ، بالدال ، فمثلا « يزتا » الذى ذكر فى أوستل أصبح فى البهلوية الساسانية « يزدا » ثم حرفوه فقالوا « يزدان » وكذلك « امرتات »كاناسما لملك من الملائكة ، واسما لشهر فارسى كذلك ، تغير فى البهلوية الساسانية فأصبح « امرداد » وهذا هو ما وقع لاسم مؤسس الدين الفارسى ، فصار زاراتهسترا « زارادهشترا » ثم صار بكثرة الاستعمال « زردهشت » فقال الدقيقى : مئى خون رنك وكيش زردهشتى . وجاء فى شاه نامه :

خجسته بئى نام أو زردهشت   كه أهريمن بدكيش رابكشت

وحرف العرب « زردهشت » بدروهم فقالوا : زرتشت أو زردشت .

أما مكان ظهوره ، فترجح عند العلماء أنه ظهر فى ايران الشمالية ، نعنى بها ازربيجان [1] (آتربايكان) « بالكاف الفارسية » التى سميت فى الجزء المسمى بـ « ويندى : من أوستا بكلمة « ايريانا ويجو » [2] أى أرض ايريانا الظاهرة • وقال كلدنر ان سلمنا برواية شاهنامة ، فيكون المقصود بغشتاسب [3] ذلك الرجل الذى كان والدا لدارايوش على رواية مؤرخى اليونان • سواء ظهر رزدشت فى زمن غوروش أو تقدمه بقليل ، فليس هنالك ما يحملنا على الريب فى أن غوروش كان من متبعى الدين الزردشتى •

أجل ، ليس عندنا من الشواهد التاريخية المباشرة ما يؤدينا فيما تلناه ، ولكنا اذا نظرنا فى القرائن التى تركتها لنا النصوص التاريخية ، فلا مناص من الوصول الى ما وصلنا اليه •

لنتدبر فى حادثين تاريخيين لاشكفيهما وهو ثورة (غرموتا) التى نشبت بعد وفاة غوروش بثمانى سنين ،وكتابات دارايوش على الصخور التى تلقى الضوء على معتقداته الدينية •

لقد أجمع المؤرخون على أن غوروش توفى سنة ٥٢٩ ق •م • وخلفه ولده ، كمبوشيه (كم بى سيز فى اليونانية) الذى استولى على مصر فى سنة ٥٢٥ ق • م • ثم على ، وهو بمصر أن ثورة نشبت فى مادا ، قام بها رجل يسمى ؟ غومرتا » زاعما بأنه الولد الثانى لغوروش الذى كان يسمى « برديه (سمرديز » فى اليونانية وكان قد توفى من قبل ، فرجع كمبوشيه من مصر ، الا أنه مات فى طريقه

---

(١) « آتر » فى اللغة البهلوية القديمة معناه النار . وقد حرفت الكلمة فصارت « آزر » ثم « آتش » وعلى ذلك « آتربائكان » معناه بستان النار ، وذلك لأنه توجد بهذه الأرض ينابيع الغاز ، والتراب فى بعض الأماكن يغلب عليه الزيت ، حتى اذا اقتربت منه النار اشتعلت ، فلا عجب أن سميت هذه البلاد بهذا الاسم .

(٢) قرأت هذه الكلمة فى قراءة أسبيغل « ويج » لا ويجو فجاء فى الآية الثانية من وينداي‌داد فرغوذ الأول « يقول أهروا مزدا ، ان أول ملك خلقته هو ايريانا ويج وقد ذكر هو فى الآية الحادية والعشرين من هرموزديشت مع الصلاة عليه .

(٣) حرف اليونان اسم غشتاسب فقالوا « هيستازبيز » وهو فى البهلوية القديمة « وستاسب » .

بالشام • ولما كان نسل غوروش قد انقطعبوفاة كمبوشيه ، فقد ارتقى العرش ابن عمه ، دارايوش فقضى على الثورة وقتل زعيمها • وكذلك أجمع المؤرخون على أن دارايوش ، ارتقى العرش سنة ٥٢١ ق• م• أى بدأ عهده بعد وفاة غوروش بثمانى سنين •

وقد صرح مؤرخو اليونان ان ثورة مادا انما قام بها أتباع دينها القديم ، وقد وصف دارايوش نفسه زعيم الثورة بكلمة « موغوش » أى متبع دين مادا القديم [1] • وقد تكررت ثورات أصحاب هذا الدين فيما بعد كذلك ، فنشبت الثورة الثانية بزعامة موغورش « برأورتيش » الذى قتل فى هغ متانا ، أى همدان ، والثورة الثالثة قام بها « شترت خمه » الذى أعدم فى أردبيل •

أما كتابات دارايوش ، فان من حسن حظ التاريخ أنه اختار لها الصخور الجبلية التى عاشت على رغم الدمار الاسكندرى ، وأهم هذه الكتابات ، الكتابة التى اشتهرت بـ « الكتابة من دون عمد » وذكر فيها دارايوش تفصيل ارتقائه العرش وثورة غوموتا المجوسى •

وهنالك صخرة أخرى فى اسطخر ذكر الملك فى كتابتها أسماء البلاد التابعة له • وقد تكرر فى هذه الكتابات اسم « اهورا مزدا » الذى يرجع الملك دارايوش جميع مساعيه الناجحة الى فضله وتوفيقه • ولسنا بحاجة الى التنبيه على أن « أهورامزدا » هو الله فى الدين الزردشتى •

وينبغى ان ألا ننسى هنا أنه لا يوجد فيما كتبه مؤرخو اليونان ما يستدل له على أن كمبوشيه أو دارايوش اختار دينا جديدا ، وقد ولد المؤرخ هيرودوتس بعد وفاة دارايوش فى سنة 488 ق.م. والف

---

(١) وهنا ينبغى أن ننبه على خطأ شائع . نطقوا كلمة « موغوش » فى اللغة العربية « مجوسا » وأطلقوها على أتباع الدين الزردشتى ، ولم يكن فى الأصل اسما لهم فقد ثبت الآن بلا ريب أنه كان اسما يعرف به أتباع الدين الذى كان شائعا فى مادا قبل زردشت ، فقد وردت الكلمة فى أوستا كذلك واستعملت فى شأن معارضى زردشت ، ولكن لما كان قد اشتهر أهل مادا فى بلاد العرب والشام باسم موغوش أخذوا يسمون به اتباع زردشت كذلك . والغين فى اسم « غوروش وموغوش » وأمثالهما أصلها كاف فارسية تشبه فى النطق حرف G فى الانجليزية وكما ينطق أهل القاهرة الجيم ، ولذلك كثيرا ما تكتب عند تعريبها جيما فلا غرابة اذا نطق العرب موغوش « مجوس » .

المؤرخ هيرودوتس بعد وفاة داريوش فى سنة ٤٨٦ ق ٠ م ٠ وألف تاريخه بعد وفاته بنحو خمسين سنة ، فكان عصر داريوش ليس بعيدا عنه ومع ذلك لم يذكر شيئا عن دين داريوش ٠

ما معنى ذلك ؟ ان كان كمبوشيه وداريوش لم يعتنقا دينا جديدا بعد غوروش وقد ثبت نهائيا أن داريوش كان يتبـع الدين الزردشتى ، أفلا يظهر من ذلك أن دين زردشت كان قد دخل فى الأسرة المالـكة قبـل داريوش وكمبوشيه ، ولذلك نرى أصحاب الدين القديم يشـورون بعد وفاة غوروش بسـنين قليلة مرة بعـد أخرى ، أفلا يثبت ذلك جليـا أن غوروش كان قد اعتنق الدين الجديد ، دين زردشت ، وأن رؤساء الدين القديم كانوا يحرضون العامة وغوغاء الناس باسم الدين ، ويحملونهم على الثورات ٠

كانت شخصية غوروش ، ثورة على الميـول العقليـة والاخـلاقية لعصره ، وانا لا نجد لخصائله الروحية والاخلاقية معينـا فى البيئات العيلامية ، والاشورية ، والبابلية ، فلابد من أنه استقى من معين آخر ، ومما لاريب فيه أنه وجد هذا المعـين فى تعـاليم زردشت الاخلاقية المثلى : « هومت » و « هوخت » و « هـوورشت » أى صدق النية ، وصدق القول ، وصدق العمل ٠ هذا هو أساس تعاليم

زردشت الدينية ٠ ومن مثل هذه الأخلاق كان يمكن أن يتكون مزاج غوروش الملكى ٠

فان كان ذو القرنين يدين بدين مزديسنا ، أو بالدين الزردشتى ، ويثبت له القرآن الايمان بالله واليوم الآخر ٠ وليس هذا فحسب ، بل يجعله من الملهمين من عند الله ٠ أفلا يلزم من هذا أن دين زردشت ، كان دينا صحيحا الهيا ؟ أجل يلزم هـذا ، وليس هنـالك مايحملنا على رفض هذا اللزوم ، لانه قد ثبت الآن نهائيا بأن دين زردشت كان دين التوحيد والاخلاق الفاضلة ، وأن عبادة النار والعقيدة الثنوية ، ليستا منه ، بل من بقايا مجوسية مادا التى اختلطت بالزردشتية فى العصور التالية ٠

دين مادا وفارس قبل زردشت :

كانت المعتقـدات الدينية لأهـالى مادا وفارس ، تشبه المعتقـدات

القديمة الشائعة بين الشعوب الآرية الاخرى ، فعبد الآريون فى فارس بادىء ذى بـدء كأخوانهم الآريين فى الهند ، المظـاهر الطبيعية ، ثم أخذوا يعظمون الشمس ، ثم أحلوا النار محل الشمس ، لانها من بين العناصر المادية كلهـا ، مبـدأ النور والحرارة ، وقـد تصـور الهنود واليونان آلهة تمثل الخير والشر معا ، ولكن عقلية ايران قسمت القدرة الالهية الى قدرتين متوازيتين : فقدرة اله الخير على زعمهم تهب البشر أفراح الحياة كلها ، وقدرة اله الشر ، تتفجر منها الشرور بأصنافها ٠

وقد كانوا يبنون المذابح لعبادة النارفوق الجبال ، يتولاها السدنة الذين سموا بـ « موغوش » (موكوش ـ بالكاف الفارسـية) وقـد صارت الكلمة تمثل عبـادة النـار فيـما بعـد ، ونطقوها بالعربية والعبرية « مجوسـا » وقد سمى زردشت المجوس فى « غاتهـا » بـ « كاربان » « بالباء الفارسـية » و « كـاوى » ٠ ويرى علمـاء الألسـنة فى العصر الحاضر أن كلمـة « كاربـان » البهلوية ربمـا كانت كلمـة « كلبـه » (بالهـاء الفارسية) السنسكرتية التى تدل على القيام بالشعائر والاعمال الدينية ٠ أما كلمة « كاوى » فهى فى السنسكرتية (كوى) التى معناها ، الشاعر ، وهى فى لغة أوستا تطلق على الساحر ، وما الشاعر الا نوعا من السحرة ، ان من البيان لسحرا ٠

وان مانجده فى كتب ويدا الهندية من شعائرعبادة الآلهة والضحايا ، ربما كان شائعا مثله فى قبائل مادا وفارس المشتغلة بالزراعة ٠ وكان شرب الخمر من الشعائر الدينية ، وان الشراب المسكر الذى ذكر فى كتب ويدا باسم « سوم » كـان يسمى عنـد المـاديين والفـرس بـ « هوم » وأن زردشت ناجى الله فى أوستا فى شأن هذا الشراب فقال :

« الهى ، متى يؤثر رؤساءهذه البـلاد الهداية على الضـلال ؟ ومتى يتحرر الناس من شرور الكاربيين والكاويين ؟ ومتى يقضى على هذا الشراب النجس الذى يخدعون به الناس ، فيستأصل أصـله ويمحى أثره » ؟ (يسنا ٤٨ : ١٠) ٠

ويقول فى مكان آخر :

« ان هؤلاء الضالين المضلين يذبحون الذبائح ويقدمون الضحايا ، ويفرحون بعملهم » (يسنا ٣٢) .

مزديسنا :

وقد دعا زردشت الى دين « مزديسنا » الى دين التوحيد الذى يحرم الشرك بالله وعبادة الاوثان .

وقد أبطل زردشت جميع معتقدات موغوش ، أى المجوس القدماء قائلا : ليس هنالك قوى روحية كثيرة للخير ، ولا عفاريت كثيرة للشر . بل انما هو اله واحد ، اسمه « أهورا مزدا » الذى ليس كمثله شىء ، وهو الواحد ، الاحد ، القدوس الصمد ، وهو الحق والنور ، وهو الحكيم القادر الخالق الذى لايشاركه فى ملكه وربوبيته شىء . وان القوى الروحية التى زعموها خالقة للخير ، ليست بخالقة ، بل هى نفسها من خلق أهورا مزدا ، وهى تسمى « أمش سبند » (بالباء الفارسية) و « يزتا » أى الملائكة وانا لنجد فى جزء أوستا الذى يسمى بـ « غاتها » أسماء ملائكة عديدة مثل « أشا » و « هوفنا » و « خشترا» و « أرمتى » و « هوورونات » و « أمرتات » وكذلك ذكرت أسماء ملائكة أخرى فى الكتب التى تلت أوستا، وقد سميت الايام والشهور عند الفرس بأسماء هؤلاء الملائكة .

وكذلك صرح « زردشت بأنه ليس للشر اله ، بل الذى يأمر بالشر، هو « انغرامى نيوش » أى الشيطان . وقد حرف الاسم ، فأخذوا يقولون : « آنرومين » وبعد مدة حرفوه ، كذلك ، فأصبحوا يقولون : « أهرمن » .

وأن من العناصر الاساسية للدين الزردشتى ، الاعتقاد بالحياة الاخروية ، فهو يقول لا تنتهى حياة الانسان بموته فى هذا العالم المادى ، بل له حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، فيرى فى تلك الحياة عالمين : عالم السعادة وعالم الشقاء فالذين عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيا ، يدخلون عالم السعادة ، والذين دنسوا نفوسهم بالشرور ، يدخلون عالم الشقاء .

والاعتقاد ببقاء الروح من معتقدات دين الزردشتى الاساسية . فهو يقول بفناء الجسم . أما الروح فيبقى بعد الموت ويلاقى الجزاء وفق أعماله .

وأهم ما فى الدين الزردشتى هو قانونه الاخلاقى ، فليست الاخلاق فى نظره منفصلة عن الدين ، كما كان الامر عند اليونان ، بل هى جزء من الدين ، لاانفصال بينهما . وكذلك لم يكن الدين عنده شعارا قوميا ، واسما لرسوم وعوائد ظاهرية فقط ، بل قانونا ونظاما للحياة الفردية . وان طهارة النفس وحسن العمل ، لهو المحور الذى تدور عليه تعاليمه الدينية . وهو يطالب بموافقة النية والقول والعمل لهذا القانون موافقة تامة . وهذا القانون يتلخص فى كلمات ثلاثة « هومت ، هوخت ، هوورشت ، أى صدق النية وصدق القول ، وصدق العمل . وان دينه ، كما قال الاستاذ غرندى « كان دين الحقيقة والعمل ، فقد جعل الدين حقيقة حياة الفرس اليومية ، وجعل مكارم الاخلاق ، عنصرا مركزيا لدينه[1] .

وكان دينه لا تشوبه شائبة من الوثنية ، فهو لم يبح عبادة الاصنام فى شكل من الاشكال . وقد مضت على دينه أدوار من التحريف والتبديل ، الا أن متبعيه ما زالوا مجتنبين الوثنية . وقد اعترف بذلك « مالكهم » فى كتابه « تاريخ ايران » قائلا : « لم يجنح الفرس من بين الشعوب القديمة الى الوثنية من أى نوع فى دور من أدوار تاريخهم » .

عرفت الهند القديمة كذلك التوحيد ، ولكن بقى تصوره محصورا فى الخاصة من أهاليها ، فاستحسنوا لها الوثنية ، أما زردشت ، فلم يفرق فى ذلك بين العامة والخاصة ، فظل متبعوه من سائر الطبقات يوحدون الله على السواء . ولا نكون مخطئين ان قلنا ، لم ير التاريخ القديم الا دعوتين تدعوان الى التوحيد فى العالم الوثنى ، وهما دعوة ابراهيم عليه السلام من الشعوب السامية ، ودعوة زردشت من الشعوب الآرية .

---

(١) راجع مقال الاستاذ فى التاريخ العالمى ج ٢ ص ١١٣٠ .

زردشت والثنوية :

ظن النـاس أن الدين الزردشتى قـام على الالوهيـة الثنـوية أى الاعتقاد بوجود الهين اثنين فى الكون : اله للخير ، واله للشر ، كما كان المجوس يعتقدون قبل زردشت ، ولـكن ثبت بعـد البحث والتحقيق أن هذا الظن ليس من الحق فى شىء . أجل قال زردشت بأصلين كونيين : أصل الخير ، وأصل الشر ، ولكنه لم يقل بالهين متوازيين . كما كان المجوس يعتقدون قبله ، فقد أنكره هو انكارا تاما . نعم انه كان يقول بالاخلاق الثنوية ، لا بالالوهية الثنوية .

وقد حاول بعض الفرس الزردشتيين فى العصر الحاضر أن ينزهوا الدين الزردشتى عن الثنـوية كلية ، الا أن محاولتهم هذه لا تخلو من التكلف ، ولم تكن ثمة حاجة اليها .

ما هى حقيقة الثنوية عند زردشت ؟ أنها ليست الا القول بأنه يوجد فى الكون أصلان : أصل للخير وأصل للشر ، وأن الذى يجلب الشر هو « انغرامى نبوش » (أهرمن) وهو الشيطان فى لغته ، وهذه الثنوية لا يخلو منها دين ، وأن تفاوتت درجات الاديان فيها ، فاليهودية والنصرانية والاسلام ، كل من هذه الاديان الثلاثة يقول بوجـود الشيطان ، وان عمدنا الى تحليل « انغرامى نبوش » الذى ذكـره أوستا . والشيطان الذى حدثنا عنه كتاب الخلق من التوراة تحليلا منطقيا ، فاننا لا نجد بينهما فرقا جوهريا .

وهنا تعرض لنا مسألة أساسية : أليس فى الكون شىء يصح أن يسمى بالخير أو الشر ؟ وهل الذى نسميه بالخير أو الشر ليس له وجود فى الخارج بل هو تأثر اضافى لنا فقط ؟ ان قلنا بذلك فطبعا لايبقى مجال لوجود الشيطان أو انغرامى نبوش ، ولكن ان قلنـا بوجود حقيقيتين متوازيتين للخير والشر ، فلا مناص من قبول الثنوية فى شكل من الاشكال ، وسواء سميناها بهذا الاسم أو بغيره ، فانها تحتل مكانا فى معتقداتنا .

وهذا أفلاطون ينقل لنا فى كتابه « الجمهورية » قول سقراط ، ان الشر فى العالم أكثر من الخير ، ولما كان من المستحيل أن يكون الله علة

الشر ، فلابد من البحث عنها فى شخص آخر . وهذا البحث يصل بنا الى الشيطان أو الى انغرامى نبوش . وقد حكى كتاب الخلق من التوراة قصة آدم والشيطان وقص أوستا قصة « جم » و « انغرامى نبوش » والحقيقة واحدة فى القصتين وان اختلفت الاسماء والاشكال .

روح مزديسنا الأخلاقية :

وقد اجتمعت كلمة محققى العصر الحاضر على أن تعاليم زردشت قد لعبت دورا هاما فى الرقى الانسانى الفكرى والاخلاقى ، وأنه وصل بأهل مادا وفارس قبل خمسمائة سنة من الميلاد الى المستوى الاخلاقى الطاهر الرفيع بينما كان اليونان والروم فى حضيض من الاخلاق . وأن الدين الذى جعل هدفه الوحيد تطهير الحيـاة الفـردية من أدران الشرور ، كان خليقا أن يسبك قوالب مثالية للاعمال الحسنة والخصائل الحميدة .

ومن الذين شهدوا له بذلك ؟

هم أولئك الذين لا يمتون بصـلة صداقة للفـرس ، بل كانوا ألد أعدائهم . وعلى رغم ذلـك نراهم لا يمـارون فى فضـل الفـرس الاخلاقى . فهذا هيرودوتس وزينوفن يعترفان صراحة بأن الفضائل التى تحلى بها الفرس ، خلت منها اليونان ، ولنستعر من الاستاذ غرندى كلمته التى قالها فى هذا الباب « ان ما كان الفرس قد أتصفوا به من الصدق ومحاسن الأخلاق ، لانرى له مثيلا فى الشعوب المعاصرة لهم » .

كتابات دارابوش :

بلغ الدين الزردشتى ذروة مجـده فى عصر دارابوش . وها نحـن أولاء نرى الامبراطور يردد صوت هذا الدين فى كتاباته الخالدة على الصخور ، فيقول فى واحدة منها ، وقد مضت عليها ألفان وخمسمائة سنة :

« ان الاله العلى ، أهو رامزدا ، هـو الـذى خلق الارض ورفع السماء ، وفتح سبل السعادة على البشر ، وهو الذى أقام دارابوش

وحده حاكما على الكثيرين ، وجعله واضع الشرائع لهم » .

ويقول فى كتابة أخرى »

« يعلن دارايوش للناس قاطبة بأن أهورامزدا ، قد وهبنى الملك بفضله ورحمته وقد نجحت بتوفيقه تعالى فى تدعيم الامن والسلام فى الارض ، وانى ابتهل الى أهورامزدا الهى ، أن يرعانى أنا ، وأسرتى ، وجميع البلاد التى جعلنى حاكما عليها . يارب ، أهورامزدا ، اسمع دعائى واستجبه» .

الدعوة الى الصراط المستقيم :

وكذلك يقول الملك :

« يا أيها الانسان ، أمرك أهورا مزدا ألا تخوض قط فى الشر ، ولا تحيد عن الخط المستقيم أبدا ، واحذر الاثم فى جميع الاحوال ! » .

ولا تنس أن دارايوش كان ابن عم غوروش ، وقد خلفه بعد وفاته بثمانى سنين وفى ذلك مايقول داريوش فكأنه قول غوروش نفسه ، وأن نسبة دارابوش ملكه وكل نجاحه من فضل أهورامزدا وتوفيقه ورحمته ، تطابق قول ذى القرنين فى القرآن « هذا رحمة من ربى » (٩٨) .

تأخر مزديسنا وتحريفه وامتزاجه بغيره :

وقد بدأ تأخر الدين الزردشتى من القرن الثالث قبل الميلاد ، فرفعت المتقدات المجوسية القديمة رأسها من جهة[1] وأخذت المؤثرات الخارجية تعمل عملها فيه ، حتى نرى هذا الدين ، دين غوروش ودارايوش فى عصر الامبراطور الرومانى ، « أنتونين » قد تحول

(١) تشبه هذا ما حصل للديانة البوذية فى الهند فقد طغت على الهندوسية الديانة القديمة مدة فى الهند ثم انحسرت وتقلص ظلها وعاد أكثر الناس تدريجيا الى معالم الديانة الهندوسية .

الى شكل آخر ففقد سذاجته الأولى ، وانضمت اليه عقائد معوجة معقدة .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن حرب الاسكندر لم تقض على دولة الفرس السياسية وحدها بل جرحت مجد دينها القومى كذلك جرحا بليغا . تقول لنا الاسطورة الفارسية أن صحيفة زردشت الدينية المقدسة كانت دونت فى جلود اثنى عشر ألف ثور بحبر من الذهب واحترقت أيام حرب الاسكندر .

ولا شك أن القول بجلود اثنى عشر ألف ثور ، مبالغ فيه ، ولكن مما لا ريب فيه أن مافعلت اغارة بختنصر مع التوراة ، فعلته اغارة الأسكندر مع أوستا ، كتاب زردشت ، أى أن الدينيين فقدا معظم بضاعتهما .

ولما تأسست الامبراطورية الساسانية بعد خمسمائة سنة من الاسكندر ، حاول الفرس لم شعث الدين الزردشتى من جديد ، فكما جمع النبى عزرا التوراة بعد أسر بابل ، كذلك يقال أن « أردشير بابكان » أمر بجمع كتاب أوستا من جديدالا أن خصوصيات الدين الحقيقية كانت قد تحرفت بتغييرات واضافات كثيرة ، ومسخت حقيقتها فالدين الزردشتى فى شكله الجديد ، لم يكن دينا خالصا ، بل أصبح خليطا من المجوسية القديمة ، واليونانية ، والزردشتية . وقد زاد المفسرون له الطين بلة وذلك بحواشيهم وشروحهم وتفاسيرهم التى ذهبت بالدين بعيدا عن أصله .

الاسلام والزردشتيون :

ولما جاء الاسلام ، كان هذا الدين الزردشتى المحرف معروفا للعرب باسم المجوسية ، وهذا خطأ كما سبق ان نبهنا فىالهامش — غيرأن نبى الاسلام صلى الله عليهوسلملم يخف عليه أصله ، فقال«سنوابهم سنة أهل الكتاب » أى عاملوا الزردشتيين كما تعاملون أهل الكتاب ، فترى من هذا أن نبى الاسلام عليه السلام لم يتم الزردشتيين بتمام المشركين ، بل وضعهم بمقام أهل الكتاب .

وهكذا اعترف الاسلام لدينهم بما اعترف بهلدين اليهودوالنصارى ، وانك لتعلم أنالاسلام بينما يصدق بأصل دين اليهود والنصارى،ينكر

عقائدهم المعرفة المبدلة . وهـذا هو مافعله بالدين الزردشتى ، فلم ينكر أصله ، بل أنكر المجوسية المحرفة المبدلة .

وقد روى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال : (انى أعلم ما عليه المجوس . عندهم شريعة يعملون بهـا ، وكتاب يؤمنون به ، فعاملوهم معاملة أهل الكتاب) .

فما زال المسلمون يرون أن دين الزردشتى فى أصله لم يأمر بعبادة النار ، بل أمر بالتوحيد ، وأن زردشت كذلك كان نبيا من الانبياء القدماء . وقد أفصح الفردوسى صاحب « شاه نامه » الخالدة عن هذا الرأى بقوله :

مكوئى كه آتش برستان بدند
برستند كان نبك بزدان بدند

أى لا تقل عن الزردشتيين أنهم كانوا عبدة النار ، بل كانوا يعبدون الله الواحد .

وكان أبو الريحان البيرونى فى عصر الفردوسى يحقق التواريخ والسنين للامم القديمة . وقد قال فى كتابه « الآثار الباقية » ما يستنبط منه أنه كان يفرق بين الدين الزردشتى والمجوسية . وقد صرح شيخ الاشراق ، شهاب الدين المقتول فى كتابه « حكمة الاشراق » بأن زردشت كان نبيا . ليس هذا فحسب بل وصل بين زردشت وبين المذهب الافلاطونى الجديد[1] ، ووافقه فى قوله ، شارح « حكمة

(1) نفى الفلاسفة من الاسكندرية بأمر امبراطور الرومان جستينين فى سنة ٢٥٩ م. فتوجه بعضهم الى ايران ولقوا كل ترحيب فى بلاط أنو شروان، وقيل أن : سمى تس ودبما ستس ، قد خصا باحترام كبير فى البلاط ، وقد عرفت اللغة الفارسية مذهب أفلاطون الجديد بسبب هؤلاء الحكماء ، وليصبغوه بالصبغة القومية ، نسبه بعض حكماء ايران الى زردشت وجاماسب ، ولما نقلت الآداب الفارسية الى العربية توهم الناس أنه كانت لزردشت وجاماسب فلسفة ذات أسرار ، تشبه فلسفة الاسكندرية الى حد كبير ، ولعل الذى كتبه شيخ الاشراق فى مقدمة « حكمة الاشراق » ناتج من هذا الوهم . وقد أخطأ حكماء العرب فى ظنهم أن مذهب أفلاطون الجديد الاسكندرى ، مذهب أفلاطون نفسه . وقد وقعوا فى هذا الخطأ لأنهم لم يفرقوا بين بلاتينس وأفلاطون ، أو خدعتهم نسبة المذهب الى أفلاطون .

الاشراق » قطب الدين الشيرازى . وقد صرح من بين متصوفى الهند الصوفى السمح ، الواسع الفكر الميرزا مظهر جان جانان بمثل هذا الرأى فى شأن قادة الأديان القدماء بالهند وايران » [1] .

ولما نقل العرب ما وجدوه من الكتب الفارسية القديمة الى اللغة العربية ، ترجموا كذلك كتاب (أوستا) الذى دون فى العصر الساسانى ، واليه يشير مرة بعد أخرى أبو حمزة الاصفهانى فى تاريخه[2] . وكذلك بين المسعودى والبيرونى نوعية أوستا ، وذكرا ترجمته العربية ، فقالا ، ان أوستا يحتوى على واحد وعشرين جزءا يكتب كل جزء منها فى نحو أربعمائة صفحة ، وأنه يسمى أحد الاجزاء بـ « جسترشت » الذى ذكرت فيه بداية العالم ونهايته . ويسمى الجزء الأخير منها بـ « هادوخت » الذى يحتوى على وصايا أخلاقية[3] .

ومن المؤسف أن نسخة أوستا العربية هذه التى كانت موجودة الى القرن الرابع من الهجرة ، كما صرح به أبو حمزة الاصفهانى ، قد فقدت ، ولم يبق لها أثر فى دور الكتب العالمية الحاضرة . وكل ما عندنا من الذى يسمى بأوستا ، هو جزء ناقص من أوستا العصر الساسانى الذى وصل الينا بواسطة الفرس والزردشتيين المهاجرين الى الهند . ونحن مدينون لمساعى المستشرق الفرنسى « آنك تيل » وتضحياته العلمية فى معرفتنا بهذا الجزء وأما محتوياته ، فنجد على خمسة فصول (غاتها) منه مسحة من العصر الزردشتى ، والباقى ينطق بلسانه أنه دون فى العصر الساسانى أو بعده .

(سد يأجوج ومأجوج)

ها نحن قد فرغنا من البحث فى شخصية ذى القرنين ، ولم يبق لنا الا النظر فى مسألة يأجوج ومأجوج ، فياترى أى سد أريد به ؟ وأين نبحث عنه فى أوراق التاريخ وفى خريطة الأرض الجغرافية ؟

وعلينا أن نتذكر فى معالجة هذا البحث أن القرآن ذكر أمرين عن السد بخصوصية وهما .

(1) كلمات طيبات ، مكتوب ١٤ ص ٢٧
(2) تاريخ سنى ملوك الأرض ص ٦٤ (3) المسعودى ج ٢ ص ١٢٦ والآثار الباقية ص ١٠٥ .

أى كان المكان مضيقا جبليا .

وأن السد الذى أقيم به ، استخدمت فيه زبر الحديد (أى قطع الحديد) وأفرغ عليها النحاس المذاب .

وعلى ذلك يجب

١ — أن نجد السد فى مضيق جبلى ٢ — وأن يكون هو جدارا حديديا لا جدارا من الحجر والاجر .

٣ — ويكون قد سد طريق المضيق الجبلى .

نبهنا الى هذه الاوصاف لان مفسرينا غضوا النظر عنها ، فهم اذا سمعوا بوجود جدار فى مكان ما ، سبق الى أذهانهم أنه هو السد الذى بناه ذو القرنين حتى أن المرحوم السير السيد احمد (خان) من الباحثين العصريين ، ذهب الى أن جدار الصين هو سد ذى القرنين ، فى حين أن هذا الجدار لا يمكن أن يكون ذلك بحال ، لأنه لم يبن فى مضيق جبلى ، ولا استخدمت فيه قطعات الحديد ، بل هو جدار من الحجر يمتد الى مئات من الاميال .

يأجوج ومأجوج :

ولنبحث عن يأجوج ومأجوج أولا : فاذا وجدناهم ، سهل علينا الوصول الى السد .

ذكر القرآن يأجوج ومأجوج فى سورتين ، فقال فى سورة الانبياء « حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » (٢١ : ٩٦) وفى سورة الكهف التى قصت قصة ذى القرنين .

ان كلمتى « يأجوج » و « مأجوج » تبدوان كأنهما عبريتان ، ولكنهما فى أصلهما قد لاتكونان عبريتين ، أنهما كلمتان أجنبيتان اتخذتا الصورة العبرية ، فهما تنطقان باليونانية (غاغ) (Gog) وماغاغ (Magog).

وقد ذكرتا بهذا الشكل فى الترجمه السبعينيه للتوارة ، وراجتا بالشكل نفسه فى سائر اللغات الاوروبية .

وقد ورد هذا الاسم لاول مرة فى التوارة فى كتاب الخلق عند ذكر خروج أمم العالم من ذرية نوح . فقال « ولد ليافث بن نوح ، جمر ، ومأجوج ، ومادى ، ويونان وتوبال ، ومسك ، وتيراس » (١٠ : ٣) .

ثم تكرر ذكرهم فى الصحف الاخرى وقد ذكروا بصراحة وتعيين واضحين فى صحيفة حزقيال كما ستراه ، وكذلك جاءت نبوءة بظهورهم فى مكاشفات يوحنا فى العهد الجديد .

فمن كان هؤلاء القوم ياترى ؟

لقد تضافرت الشواهد التاريخية على أنهم لم يكونوا الا قبائل همجية بدوية من السهول الشمالية الشرقية ، تدفقت سيولها من قبل العصر التاريخى الى القرن التاسع الميلادى نحو البلاد الغربية والجنوبية وقد سميت بأسماء مختلفة فى عصور مختلفة ، وعرف قسم منها فى الزمن المتأخر باسم « ميغر » فى أوربا ، وباسم التتار فى آسيا .

ولا شك أن فرعا لهؤلاء القوم ، كان قد انتشر على سواحل البحر الاسود فى سنة ٦٠٠ ق . م . وأغار على آسيا الغربية نازلا من جبال القوقاز .

وقد سماه اليونان باسم « سى تهين » ذكر بنفس هذا الاسم فى كتابة دارايوش باسطخر ، ولنا أن نجزم بأن هؤلاء هم الذين شكت غاراتهم الشعوب الجبلية الى غوروش ، فبنى السد الحديدى لمنعها .

القبائل المنغولية والبواشية :

تسمى هذه البقعة الشمالية الشرقية من الارض « منغوليا » وقبائلها الرحالة ب « منغول » وتقول لنا المصادر الصينية أن أصل كلمة منغول ، هو « منكوك : (بالكاف الفارسية بعد النون) أو (منجوك) بالجيم الفارسية وفى الحالتين تقرب الكلمة من النطق

العبـرى « ماكـوك » (بالكـافين الفـارسـيتين) والنطق اليونانى « ميكاك » (بالكافين الفارسيتين) ويخبرنا تاريخ الصين عن قبيلة أخرى من هذه البقعة ، كانت تعرف باسم « يواشى » والظاهر أن هذه الكلمة مازالت تحرف عند الامم حتى أصبحت « يأجوج » فى العبـرية .

منغوليا مهد الشعوب القديمة :

ان الجزء المرتفع من الكرة الارضية الواقع فى الشمال الشرقى الذى يسمى الان منغوليا وتركستان الصينية ، كان مهدا لشعوب قديمة لا تحصى . كان معينا بشريا تتدفق مياهه وتتجمع ، حتى اذا بلغت النهاية ، طغت وانصبت الى الغرب والجنوب .

وجدت الصين فى الشرق منه ، وآسيا الغربية والجنوبية فى غربه وجنوبه ، وأوربا فى الشمال الغربى منه ، فمـازالت سيول القبائل والشعوب تتدفق ، فيستوطن بعض القبائل آسيا الوسطى والبعض الاخر يتقدم فيصل الى أوربا ، أو ينزل بآسيا الغربية والجنوبية .

وكانت هذه القبائل بعد خروجها من مسقط رأسها ، وحط رحالها فى البلاد الجديدة ، تفقد خصوصياتها الاولى وتصطبغ بصبغة أوطانها الجديدة ، فتصير على مرور الايام شعوبا بنفسها . ولكن كان موطنها القديم لا تتغير أحواله ، ولا تزال تنشأ فيه قبائل جديدة وتتدفق فى دورها الى الخارج كأخواتها السابقة .

لا تتغير هذه البقعة بل تظل على همجيتها القديمة ، ولكن الذين كانوا ينسحبون منها ويسكنون البلاد الاخرى . يتحضرون مع مر الزمن ، فتختلف حالتهم الجديدة عن الحالة القديمة فبينما كانت المدنية تهذبهم وتزيل بربريتهم ، فيشتغلون بالزراعة والصناعات ، ويعيشون عيشة سهلة هنية ، كان اخوانهم فى مسقط رأسهم يبقون على حالتهم الاولى من الهمجية والخشونة والقسوة ، ولذلك يظلون شبحا مخيفا للمتحضرين .

الأدوار السبعة لخروج يأجوج :

يسهل علينا أن نقسم زمن خروج هذه القبائل الى سبعة أدوار :

فالدور الاول منها كان قبل العصر التاريخى عندما بدأت هذه القبائل تهاجر من الشمال الشرقى ، وتنتشر فى آسيا الوسطى .

وكان الدور الثانى فى فجر التاريخ ، فنرى فى ضوئه معالم حياتين مختلفتين : حياة البداوة وحياة الاستقرار فتخلد القبائل المهاجرة الى السكينة ، وتباشر الحياة الزراعية ، الا أن سيولا جديدة لا تزال تتدفق من الشرق . ومدى هذا الدور من نحو سنة ١٥٠٠ ق. م الى سنة ١٠٠٠ ق . م .

ويبدأ الدور الثالث : من سنة ألف قبل الميلاد فنجد قوما همجا من البدو فى بلاد الخزر والبحر الاسود . ثم نرى قبـائل « سى تهين » أخذت تظهر على مسرح التاريخ من سنة ٧٠٠ ق. م . وتهاجم آسيا الغربية .

وكانت الحضارة الآشورية قد بلغت أوج مجدها ، وسادت مدنية نينوا وبابل على آسيا كلها . قال هيرودوتس « ان حدود الاشوريين الشمالية كانت عرضة لغارات قبـائل « سى تهين » المستمرة ، وكانت هذه الحدود تمتد الى جبال أرمينيا ، فكانت قبائل سى تهين تجتاز مضيق القوقاز ، وتشن الغارات المدمرة على شعوب السهول ، حتى أن جموعا كبيرة منها تقـدمت سنة ٦٢٠ ق. م ، ووصلت الى نينوا ، وداست فى طريقها ايران الشمالية . ويرى مؤرخو اليونان أن هذا الحادث كان من أهم أسباب سقوط نينوا (١) .

أما الدور الرابع ، فينبغى أن نجعله فى سنة ٥٠٠ ق . م . — الزمن الذى ظهر فيه غـوروش وتكونت مملكة ماذا فارس المتحدة ، فتغيرت الظروف فجأة ، وأمنت آسـيا الغربية من هجمـات قبائل سى تهين .

---

(١) هيرودتس ، ١ — ١٠٤ .

وكان الدور الخامس : فى القرن الثالث قبل الميلاد ، تدفق فيه سيل جديد للقبائل المنغولية وانصب على الصين • وقد سمى مؤرخو الصين هذه القبائل بـ « هيو نغ نو » وقد حرف الاسم فأصبح « هن » فيما بعد •

وفى هذا العصر بنى أمبراطور الصين ، شين هوانغ تى ، ذلك الجدار العظيم الذى اشتهر بجدار الصين لصد هجمات هؤلاء المغيرين ، والذى لا يزال يوجد الى يومنا هذا • وقد بدأوا ببنائه سنة ٢٦٤ ق • م • وأتموه فى مدة عشر سنين • ولما صد هذا الجدار حملات المغول من الشمال والغرب توجهوا الى آسيا الوسطى من جديد •

وكان الدور السادس : فى القرن الرابع الميلادى عندما رفعت هذه القبائل رأسها فى أوربا بعد أن حظيت بقائد كبير ، هو اتيلا وقضت على الامبراطورية وعلى المدنية الرومانية معا •

وقد كان الدور الاخير — الدور السابع — فى القرن الثانى عشر الميلادى فاحتشدت جموع عظيمة من القبائل فى بلاد منغوليا ، وخرجت بزعامة جنكيز خان فقضت على الحضارة العربية وخربت بغداد •• مدينة السلام فتعلم مما سبق أن معظم آسيا الغربية كانت عرضة لهجمات قبائل سى تهين المنغولية من القرن السادس قبل الميلاد ، وأن الزمن الذى وقفت فيه هذه الهجمات بغتة ، هو زمن غوروش ، فلابد من أن تكون هذه القبائل (سى تهين) هى التى سميت باسم يأجوج ومأجوج ، ولصد غاراتها بنى ذو القرنين ، أى غوروش ، السد الحديدى فقفل هذا السد الطريق الذى كان يسلكه هؤلاء الهمج لشن غاراتهم على آسيا الغربية ، فأصبحنا لا نسمع لهجماتهم خبرا بعد • من أى طريق كانت هذه القبائل تشن غاراتها ؟ يخبرنا مؤرخو اليونان بأنه كان مضيقا فى جبال القوقاز ، وقد ظل هذا المضيق بابا مفتوحا على المغيرين زمنا طويلا ، فان كان غوروش يريد صون آسيا الغربية من غاراتها • فما كان له الا أن يسد هذا الباب ، وقد فعل ذلك ببناء سده الحديدى •

نبوءة حزقئيل ويأجوج ومأجوج :

ظهر النبى حزقئيل فى الزمن الذى كان اليهود يحيون حياة الاسر فى بابل ويقول التاريخ اليهودى بأن بخت نصر هو الذى جاء بحزقئيل الى بابل مع قومه اليهود فعاش الى زمن غوروش • وقد وجدت فى السفر المنسوب اليه نبوءات خوطبت بها الشعوب المختلفة ، منها نبوءة فى شأن يأجوج ومأجوج كذلك وهى كما يلى :

« وصلنى كلام الرب قائلا ، يابن آدم ول وجهك شطر جوج وتنبأ ضده ، نعم شطر جوج الذى هو رئيس أرض مأجوج ، ومسك وتوبال ، فقل له ، ان الرب يقول لك ، انى أصبحت ضدك وانى أبدلك ، وأخرج فكك ، واطرد جميع جندك وفرسانك الذين يرتدون الملابس العسكرية ، ويحملون السيوف والتروس ، وأطرد معهم الفارس ، وكوش والقوط كذلك » •

ويلى هذا من التفاصيل ما يتلخص فى أن جوج يتقدم من الشمال ناهبا مدمرا ولكن يحل بالقوم الدمار ، فيهلكون فى « وادى المسافرين » الواقع فى شرق البحر ، وتبقى جثثهم تتعفن الى زمن طويل ، ثم يدفنها الناس ليخلو لهم الطريق (٣٨ : ٣٩)

وصف جوج فى النبوءة بأنه رئيس « مسك » و « توبال » فكأن النبوءة صورت موقع « سى تهين » الجغرافى بهذا الوصف ، فليس « مسك » الا مانسميه الآن بموسكو ! أما توبال ، فهى بلاد البحر الاسود المرتفعة •

ثم جاء فى النبوءة انى أردك ! وهذا هو ما وقع على أيدى غوروش ، فانه أقفل الطريق بسده على قبائل سى تهين ، فارتدت الى ورائها ، ثم قال : ان جيش مأجوج كله يخرج ، وكذلك يبرز جيش فارس ، ويشترك معه القوط (غاله) أيضا • ويكون هلاك مأجوج فى « وادى المسافرين » وهذا هو عين ما وقع عندما هاجم دارابوش ، بلاد أوروبا ، خرجت لمحاربته جميع قبائل سى تهين ، ولكنه تقدم الى الدانوب بعد أن قتلهم شر تقتيل ، وبقيت جثث المقتولين منهم تتعفن على ساحل البحر الاسود لمدة من الزمن •

ذكر كل هذا فى صحيفة حزقئيل كنبوءة ، الا أن البحاثة العصريين يرون أنه ألحق بها بعد ما شـهد العالم هجوم داريوش وما تبعه من الحوادث • وقد ذهبت طائفة من شراح التوراة فى العصر الحاضر الى أن المقصود من مأجوج ، هو قبائل سى تهين •

سد يأجوج ومأجوج :

لنبحث الآن عن المكان الذى أقام به غوروش سـده •

توجد فى البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الاسود سلسلة جبـال قوقاز كأنها جدار طبيعى • وقد سد هذا الجدار الجبلى ، الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب الا طريقا واحدا بقى مفتوحا ، وهو مضيق فى وسط سلسلة الجبال ، يوصل بين الشمال والجنوب • ويسمى هذا المضيق فى أيامنا هذه بمضيـق داريال ، ويشار الى موضعه فى الأطالس الحاضرة بين فولادى كيوكز وتفليس ، حيث يوجد الى الآن جدار حديدى من قديم الأزمان •

ولا ريب أن هذا هو الجدار الذى بنـاه غوروش ، اذ تنطبق عليه الاوصاف التى وصف بها القرآن سد ذى القرنين قائلا أنه استخدمت فى بنائه زبر الحديد « قطعه » وأفرغ عليه النحاس بعد أن أذابـوه لتتصل مفاصله فلا يبقى به خلل ، وقال أنهبنى بين جدارين جبليين •

وهذا هو ما نراه فى مضـيق داريال جدارين جبلين شـاهقين أقيم بينهما هذا السد الحديدى الذى أقفل باتصاله بالجدارين الطريق الذى كان مفتوحا بينهما •

وان الكتابات الارمنية لها أهمية كبيرة فى المسـألة لأنها لقرب المكان أصبحت بمنزلة الشهادة المحلية ، وقد سمى هذا السـد أو الجدار الحديدى فى اللغة الارمنية من الدهور السالفة بـ « بهاك غورائى » و« كابان غورائى » ومعنى الكلمتين واحد ، وهو «مضيق غوروش» أو « ممر غوروش » • ولا يخفى أن « غور » جزء لاسم غورش بلا ريب أفلا يثبت هذا أن غوروش هو الذى بنىالجدار ، واليه نسبوهمن قديم الزمان ؟

وهناك شهادة أخرى لا تقل فى أهميتها عن الاولى ، وهى شهادة لغة بلاد جورجيا التى هى القوقاز بعينها ، فقد سمى هـذا المضيق باللغة الجورجية من الدهور الغابرة بـ « الباب الحديدى » وترجمه الاتراك الى لغتهم بـ « دامركبو » وهو مشهور الى الان عندهم [1] •

أما المؤرخون القدماء ، فأول من ذكره منهم ، هو الرحالة اليهودى الشهير بيوسف الذى كان عائشا فى القرن الاول الميلادى . ثم ذكره بعد أن عاينـه بنفسـه المؤرخ بروكوبيس فى القرن السادس الميـلادى ، وذلك أن القـائد الرومانى بلى سـاويس لـما أغار على هذه الجهة فى سنة ٥٢٨ م كان الرجل معه فشاهد الأرض وما عليها •

قد سبق لنا أن أشرنا الى « نهر سـائرس » الذى يثبت وصـول غوروش الى هذه البقعة ، فهنالك فى القوقاز أنهـار تنبع كلهـا من هذه الجبال • وقد سمى واحد منها بنهر سائرس أى غوروش • وقد وثقت المصادر الارمنية والجورجية هذا الاسم ، وذكره كذلك بعض السياح الاوربيين من القرن السادس عشر •

فهـذا أنتونى جن كنسـن الذى أرسلته شركة تجارية فى لنـدن الى ايران من طريق روسـيا سنة ١٥٥٧ م ، وهـو يذكر هذا النهـر فى رحلته بأنه يسمى بنهر سائرس •

ثم أن جميع الخرائط التى وضعت لهـذه الجهـات فى القرن الثامن عشر ، ذكرت « نهر سائرس » هذا بصراحة تامة •

جدار دربند الحجرى وباب الابواب :

ويوجد هنالك عدا جدار «مضيق» داريال : الحديدى ، جدارآخرمن الحجر فى نفس هذه البقعة ، وبوجوده تعقدت المسألة بعض التعقد ، فلابد من معالجتها •

---

(١) الف الكاتب التركى وأستاذ التركية والفارسية فى سنت بتريبورغ . كاظم بك فى سنة ١٨٤٥ تاريخا لهذه الجهات باسم « دربند نامه » وترجم الكتاب الى الانجليزية باسم تاريخ دربند ، فراجعه ص ٢١ .

توجد على ساحل بحر الخزر الغربى بلدة ، اشتهرت من العصر الساسانى باسم « دربند » وسمتها العرب بـ « باب الابواب » وهى واقعة فى نفس المكان الذى انتهت اليه سلسلة جبال القوقاز واتصلت بساحل بحر الخزر • وقد وجد هاهنا جدار حجرى من الزمن القديم ، يبتدىء من ساحل البحر ، ويرتفع على منحدرات الجبل صاعدا الى مرتفعاته ، حتى يبلغ طوله نحو ثلاثين ميلا •

وتفصيل ذلك أنك تجد قبل وصولك بلدة دربند ، جدارا يسد الطريق كله من الساحل الى مرتفعات الجبل ، فلا يمكنك الدخول فى البلدة الا من باب فى الجدار نفسه ، وكذلك اذا خرجت من البلدة ، وجدت جدارا آخر مثل الاول يسد الطريق ، الا أنه به كذلك باب يمكنك من التقدم ويمتد الجداران جنبا لجنب الى مرتفعات الجبل ، وينقص الفصل بينهما كلما تقدما ، حتى يصبح عند الساحل خمسمائة يارد • وفى هذا الفصل تقع البلدة ثم ينقص الفصل بعد ميلين كذلك فلا يجاوز مائتى يارد وهنا تنتهى سلسلة الجدارين فيصيران جدارا واحدا •

ويمتد هذا الجدار الى ثمانية وعشرين ميلا ، وينتهى على المرتفعات العالية من الجبل • وقد اشتهرت سلسلة الجدارين عند الفرس باسم « دوبارة » والمكان الذى انتهت اليه هذه السلسلة أقيمت فيه قلعة •

وقد سدت هذه السلسلة جميع الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب سدا محكما لأنها توغلت الى داخل البحر فسدت طريق الساحل كلية ، ثم امتدت فوق الجبل الى ثلاثين ميلا ، فسدت سائر الطرق التى وجدت فى منحدرات الجبل سدا تاما وليس لأحد أن يخترق من الشمال الى الجنوب الا بطريق واحد وهو الطريق الذى يفتحه البابان فى سلسلة الجدار نفسه •

ومن المحقق أن هذا الجدار العظيم وجد قبل الاسلام ، وسمى المكان فى العصر الساسانى بـ « دربند » لوجود الجدار به ، أى باب المملكة المقفل • وقد ذكر الاسطخرى والمسعودى ، والمقدسى ، وياقوت الحموى ، والقزوينى وغيرهم من المؤرخين والجغرافيين العرب هذا المكان باسم « دربند » قائلين أنه كان يعد أهم مكان فى العصر الساسانى لان المغيرين ما كانوا يستطيعون مهاجمة ايران الشمالية الا

من هذا الطريق ، فكان المكان مفتاحا للمملكة الايرانية ، يملكها من الذى يملكه [1] •

ولما فتح العرب هذه الجهات فى القرن الاول من الهجرة ، ادركوا أهمية المكان كالساسانيين ، فسموه بـ « باب الابواب » عوضا من « دربند » وسماه البعض « باب الخزر » أو « باب الترك » : لأنه كان الطريق لغارات هذه الشعوب • والاسم ترجمة حرفية لاسمه الرومى « كاسبين بورتا » أى « باب الخزر » •

من الذى بنى جدار دربند ؟

ولنرى الان من الذى بنى جدار دربند

ان مفسرينا لما كانوا يجهلون سد مضيق داريال ، وكان هذا الجدار أمام أعينهم جزم بعضهم بدون ترو بأنه هو سد ذى القرنين ، كما فعل البيضاوى وغيره ، واليه ذهب الرازى كذلك وكان حريا بهم أن يروا هل ينطبق على هذا الجدار وصف من أوصاف سد ذى القرنين ؟ ولما كان الامر ليس كذلك ، فلا يجوز أن يقال أنه السد المذكور فى القرآن •

ويذكر القرآن أن ذا القرنين وصل الى مكان قام على جانبيه جداران جبليان فهل يوجد فى دربند جداران جبليان ؟

ويقول أن ذا القرنين طلب زبر الحديد وأذاب النحاس ، ولكن جدار دربند بنى من الحجر ، ولا وجود فيه للحديد ولا للنحاس •

وفوق ذلك بنى ذو القرنين سده بين جدارين جبليين ، ليسد به الطريق بينهما ، ونجد هنا فى دربند جدارا ممتدا الى ثلاثين ميلا ، ولا يسد ممرا جبليا بل يصعد من ساحل بحر الخزر الى مرتفعات الجبل أى أنه بين ساحل البحر والجبل لا بين جبلين •

---

(١) ذكر جغرافيو العرب هذا المكان باسم « دربند » الا أنه كان أشتهر باسم « باب الأبواب » فألف بعض الكتاب هذا الاسم ، وقد ذكره ياقوت فى معجم البلدان بهذا الاسم . « بنــد » مشهورة بأنها بمعنى « أغلق » فيقولون « دروازة بند » بمعنى أغلق الباب أو الباب مغلق .

ولكن لما وجد جـدار مضيق داريال أو سده وجدار دربند فى بقعة واحدة من الارض ، لايفصل بينهما الا مسافة قليلة اختلط الامر على الناس • ومما يثير العجب أن بعض المؤرخين العصريين كذلك وقعوا فريسة باردة لهذا الخلط •

نسبة الجدار الى الاسكندر والاشكال التاريخى ،

ذهب مؤرخو العرب بناء على الروايات الساسانية الى أن الذى بنى هذا الجدار — جدار دربند — هو أنوشروان ، فقد ذكر المسعودى والحموى تفاصيل البناء ونقل عنهما المؤرخون بعدهما[1] •

ولكن يوجد هنا أشكال ، وهو أن المؤرخ يوسف الذى كان عائشا فى القرن الأول ميلادى ، وبروكبيس الذى وجد فى القـرن السادس الميلادى ذكرا جدارا فى هذه الجهـة ، كمـا أشرنا اليه آنفـا غير

لقد أجمع المؤرخون على أن عصر أنوشروان كان من سنة ٥٣١ م الى سنة ٥٨٩ م ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون بنى شيئا قبل هذا الزمن، ولكن يوسف يذكر الجدار فى القرن الاول وبروكوبيس يشهد بوجوده فى سنة ٥٢٨ م ، فعلم من هذا أن أنوشروان لم يبن هذا الجدار •

وقد زار هذه الجهة المؤرخ الأمريكى العصرى ، اى • وى جيكسن فى سنة ١٩٠٤ فضعف رواية يوسف فى رحلته واقترح من عنده قائلا ، لم يشيد الاسكندر هذه المعاقل ، ولكن بناها بعض قواده • ثم انهم ربما زادوا فيها فى العصر الساسانى !

هذا كلام مردود ، يرفض على نفس الاساس الذى رفض عليه قول القائلين بأن الاسكندر بنـاها • وذلك لأنه ان كان شـيدها بعض قواد الاسكندر ، فمن كان هـو ؟ ولماذا شـيدها ؟ ولم أهمل مؤرخـو ذلك العصر ذكر هذا الامر الهام ؟ لقد وجـدت روايـة — مهمـا كـانت واهية — فى شأن الاسكندر ، ولم يوجد شيء مثل ذلك فى شأن قواده

```
ERROR: ioerror
OFFENDING COMMAND: image

STACK:
```